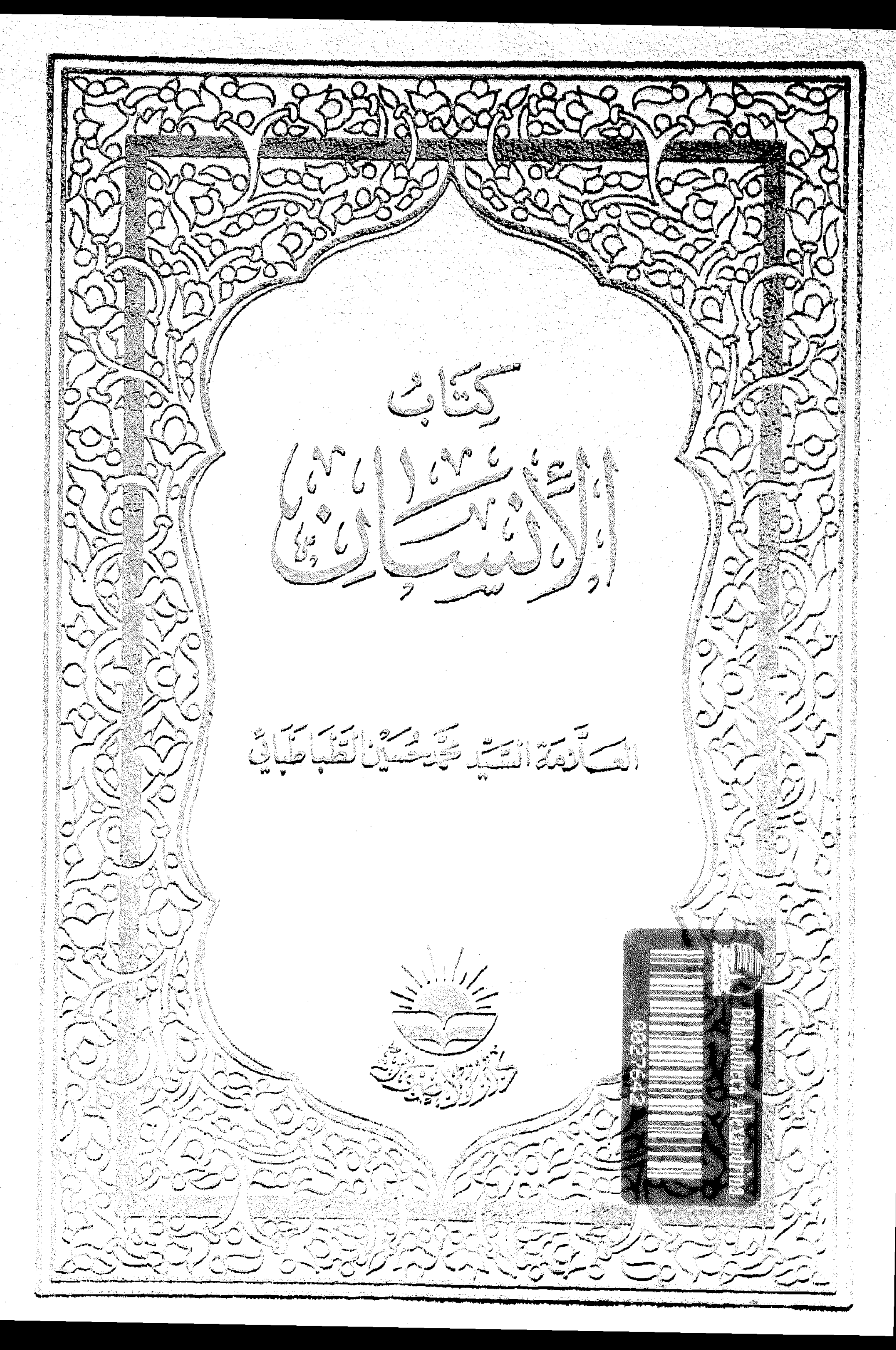
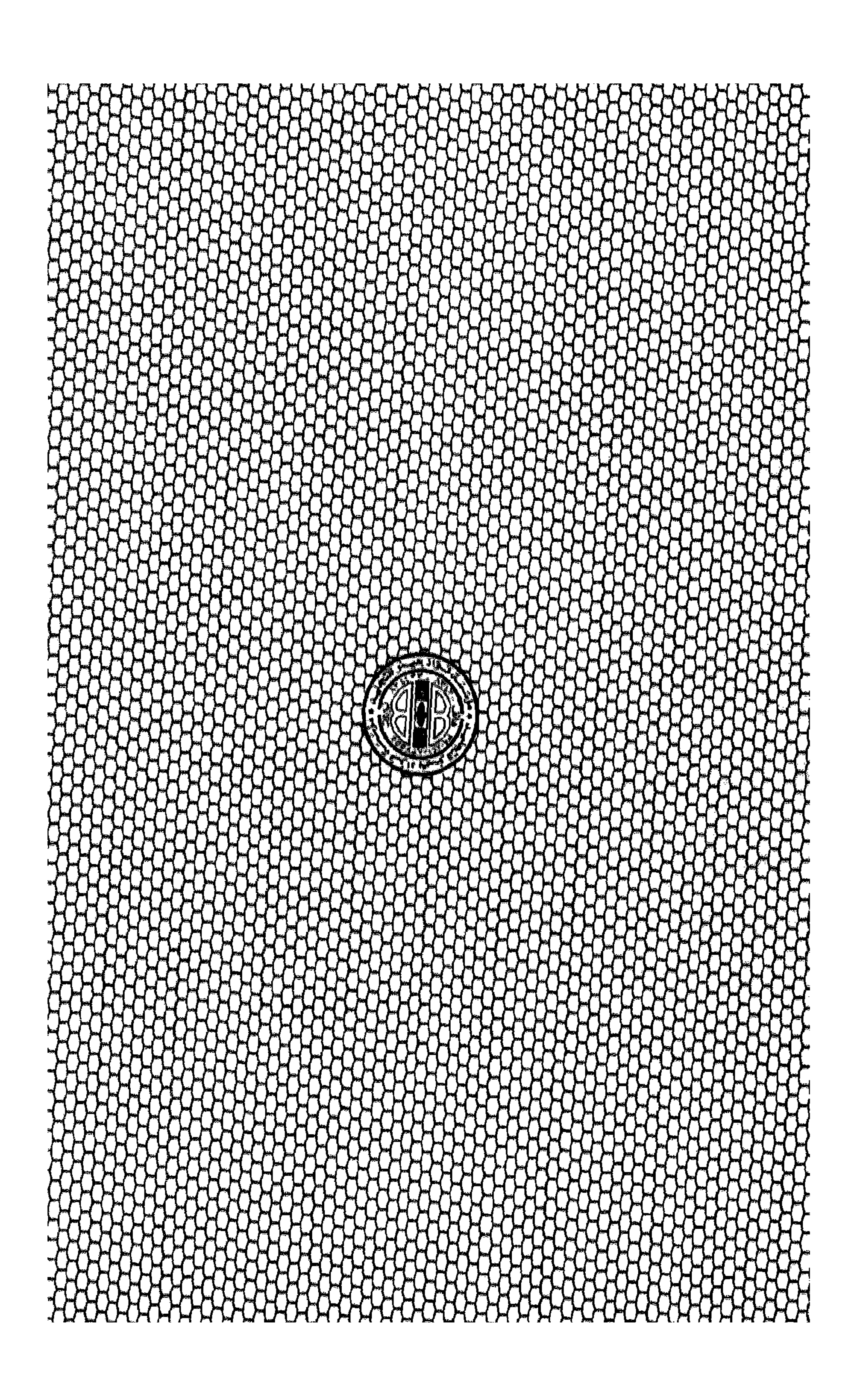
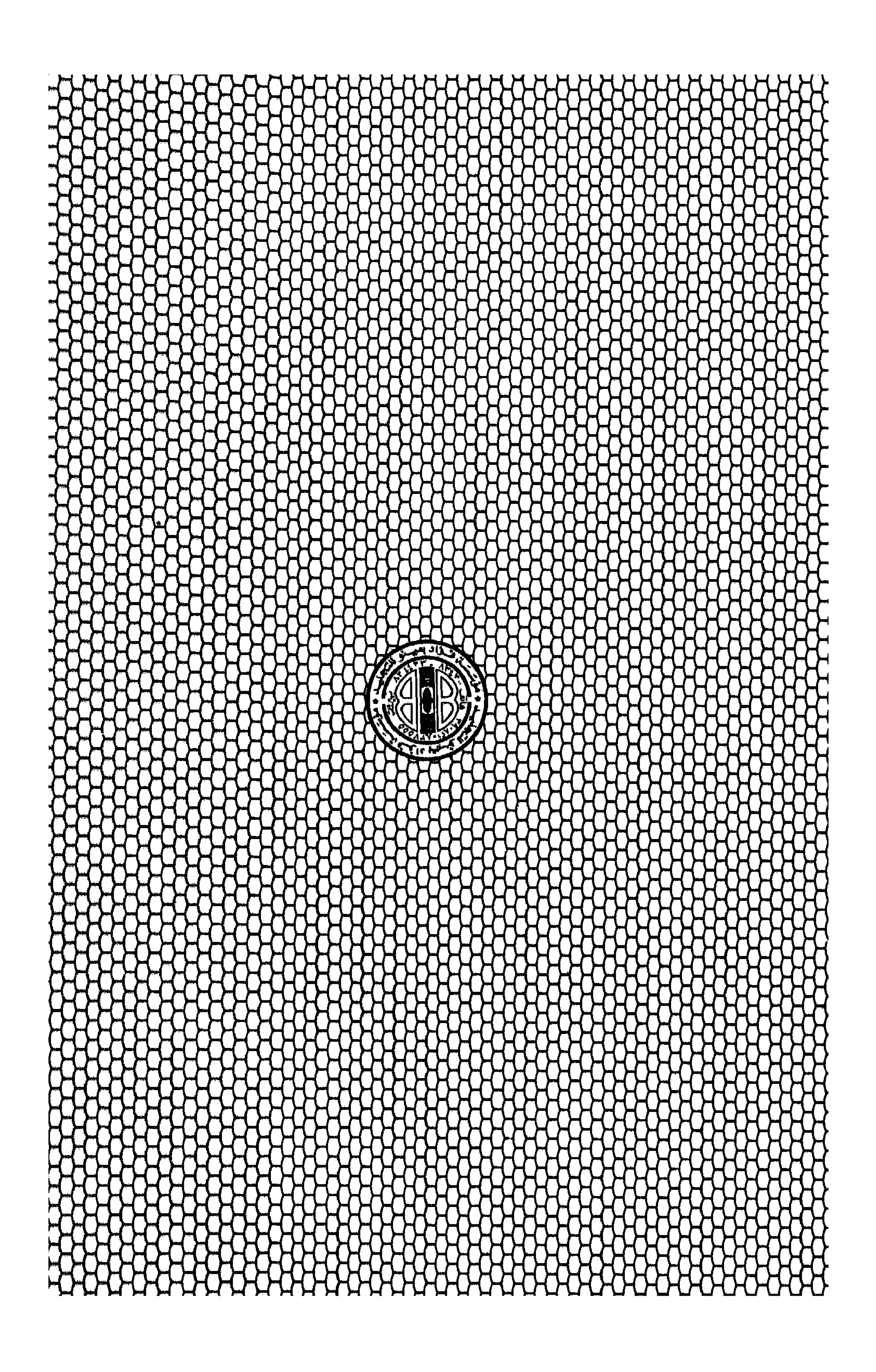

كتاب
الإنسان
العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي





كتاب الإنسان

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك - شارع دكاش - ص.ب: ٢٥/٤٠ - برقياً: غبيري - حسنكو - بيروت - لبنان

كتاب

الإنسان

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

نظراً لأهمية هذه الرسائل التي تُعْتَبَرُ مدْخلاً حقيقيّاً إلى الإيمانِ،

ونظراً للمركزِ الذي يَحْتلُّهُ مؤلِّفُها في عالم الفكر، والدين، والارشاد والتوجيه.

عملَتْ إدارة «دار الأضواء» إلى تكليف «الدائرة الدينية والثقافية» فيها، لتسليط الضوء على «كتاب الإنسان» بإعادة درس رسائله، وتصحيحها وتبويبها، بُغيَة وضْعها بين أيدي القراء الكرام، بمنهجيَّةٍ جديدة، يسهل عليهم، معها، الإفادة ممَّا احتوته هذه الرسائل من: غزارة في المعلومات، ودقَّةٍ في الملاحظة، ونفحات سامية من الإرشاد والتوجيه فاضت بها عبقرية حجَّةِ الإسلام العلامة السيد محمد حسين طباطبائي قدَّس الله سِرَّه.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أنْ هَدانا الله وهو ولي التوفيق.

سنة ١٩٨٩ م.

١٤٠٩ هـ.

دار الأضواء

الرسالة الأولى

رسالة الانسان قبل الدنيا

رسالة الانسان قبل الدنيا

هذه رسالة الانسان قبل الدنيا وهي الرسالة الأولى من كتاب الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين، سيما محمد وآله الطاهرين.

هذه رسالة الإنسان قبل الدنيا، نشير منها إلى ما جرى على الانسان قبل هبوطه ووقوعه في ظرف الحياة الدنيا على ما دبره العليم القدير، على ما ينتجه البرهان، ويستفاد من ظواهر الكتاب والسُنّة، والله المعين.

الفصل الأول

العِلَّة والمعلول

قد تبين بالبرهان في الفلسفة الأولى، أنَّ العلَّة تقتضي قيام المعلول في وجوده، وكمالاته الأوليّة والثانوية بالعلَّة، وإنَّ ذلك كلَّه من تنزلات العلة دون النواقص والجهات العدَمية.

وأيضاً إنَّ عالم المادة مسبوقُ الوجود بعالمٍ آخرَ غيرِ متعلق بالمادة، فيه أحكام المادة وهو علَّته، وبعالَمٍ آخرَ مجردٍ عن المادة وأحكامها، هو علَّة علَّته، ويسميان بِعالمي المثال والعقل، وعالميْ البرزخ والروح.

ويُستنتج من ذلك أنَّ الانسان بجميع خصوصيات ذاته، وصفاته، وأفعاله، موجودٌ في عالم المثال من غير تحقق أوصافه الرذيلة، وأفعاله السيئة، ولوازمه الناقصة، وجهاته العدمية. فهو كان موجوداً هناك في أهنأ عيش وأقرِّ عين، في زمرة الطاهرين وصفِّ الملائكة المقدسين، مبتهجاً بما يشاهده من نورِ ربِّه، ونورانية ذاته، وتشعشع أفقه، ملتذاً بمرافقة الأبرار، ومسامرة الأخيار، لا يَمَسُّه فيها تَعَب ولا لغوب، ولا يتكدر بكدورات النواقص والعيوب. لا حجاب بينه وبين ما يشتهيه، ولا ألمَ ولا ملالَ يعْتريه.

الفصل الثاني

بين الخلْق والأمر

وظواهر الكتاب والسُّنَّة تدل على ما مر؛ قال تعالى:

﴿ألا له الخَلْق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[1].

ففرق سبحانه بين الخلق والأمر، فعلمنا أنّ الخلقَ غيرُ الأمر بوجه، وليس الأمر مختصاً بآثار أعيان الموجودات. حتى تختص الأعيان بالخلق، وآثار الأعيان بالأمر، لقوله سبحانه:

﴿قل الروح من أمر ربي﴾[2].

فنسب سبحانه الروحَ، وهو من الأعيان إلى الأمر، وقوله تعالى:

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[3].

أفادَ أنَّ أمرَه هو إيجادُه بكلمةِ كُنْ سواء كان عيناً أو أثَرَ عَيْنٍ، وحيث ليس هناك إلَّا وجودُ الشيء الذي هو نفس الشي، تبين أنَّ في كلِّ شيءٍ أمراً إلٰهياً.

ثم قال سبحانه:

﴿إنا خلقناهم من طين لا زب﴾[4].

---

(1) سورة الأعراف الآية: ٥٤.

(2) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

(3) سورة يٰس الآية: ٨٢.

(4) سورة الصافات الآية: ١١.

وقال:

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾[1].

وغير ذلك من الآيات المفيدة أن الخلقَ بالتدريج.

وقد قال سبحانه:

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[2].

وقال:

﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾[3].

وقال:

﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾[4].

فأفاد عدم التدريج في الأمر.

تبيَّن بمجموعِ الآيات أنَّ الأمر أمْرٌ غيرُ تدريجيّ بخلاف الخلق، وإنْ كانَ الخلْق ربما استُعْمِلَ في مورد الأمْر أيضاً.

وبالجملة ففيما يتكون بالتدريج وهو مجموع الموجودات الجسمانية، وآثارها وجهان في الوجود الفائض من الحق سبحانه؛ وجه أمري غير تدريجيٍّ، ووجهٌ خلقي تدريجيّ، وهو الذي يفيده لفظ الخلق من معنى الجَمْعِ بعْدَ التفرقة.

وقد أفاد قوله سبحانه:

﴿انما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن...﴾ (الآية).

أنَّ الأمرَ سابقٌ على الخلق، وأنَّ الخلق يتبعه ويتفرع عليه، وهو الذي يفيده قوله سبحانه:

(١) سورة الانسان الآية: ٢.
(٢) سورة القمر الآية: ٥٠.
(٣) سورة لقمان الآية: ٢٨.
(٤) سورة النحل الآية: ٧٧.

﴿بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[1].

فعمل الملائكة وهم المتوسطون في الحوادث بواسطة الأمر.

فتحصل من الجميع أنَّ فوق عالم الأجسام وفيه نظام التدريج، عالماً آخَرَ يشتمل على نظام موجوداتٍ غيرِ تدريجية، أي غير زمانية، يتفرع كلُّ موجود زمانيّ من مظروفات نظام التدريج على ما هنالك من الموجودات الأمرية، وهي محيطة بها، موجودة معها، قائمة عليها كما يفيده.

(فالتدبير وهو الإتيان بالأمر. دبر الأمر وعقيبه يصدر من العرش أولاً، ثم يتنزل الأمر من سماء إلى سماء. وقد أوحى إلى كل سماء ما يختص بها من الأمر، فإن الأمر كلمته سبحانه، فإلقاؤه إلى شيء، وحي منه إليه، ولا يزال يتنزل سماءً سماءً حتى ينتهي إلى الأرض، ثم يأخذ في العروج، فهذا هو المتحصل من الآيات):

قوله سبحانه:

﴿ثم استوى على العرش يدبّر الأمر﴾[2].

وقوله سبحانه:

﴿ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون، يدبر الآمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾[3].

وقوله سبحانه:

﴿ثم استوى إلى السماء﴾[4].

إلى أن قال تعالى:

(١) سورة الأنبياء الآيتان: ٢٦ و ٢٧.
(٢) سورة يونس الآية: ٣.
(٣) سورة السجدة الآيتان: ٤ و ٥.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٩.

﴿فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾[1].

وقوله سبحانه:

﴿خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾[2] (الآيات).

وهي مع ذلك تفيد أنَّ الأمر في تنزله ذو مراتب، فانه سبحانه أخبر عن أن التنزل بينهن. فللتنزل نسبة إلى كل واحدة منها، لوقوعه من عال إلى سافل حتى ينتهي إلى آخرها فيتجاوزها إلى الأرض، وهو قوله سبحانه:

﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض﴾.

وهذه حال الأمر بعد تقديره بالقدر والمقادير ومحدوديته بالحدود والنهايات، كما قال سبحانه:

﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾[3].

وهناك وجود أمري غير محدود ولا مقدر، ينبيء عنه قوله سبحانه:

﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾[4] (الآية).

حيث أفاد أنَّ لكل شيء منَ الأشياءِ وجوداً مخزوناً عند سبحانه، وأن تنزله إنما هو بقدر معلوم، والآية حيث تفيد أن التنزل يلازم التقدير بالمقدار أفادت أنَّ الخزائن التي من كلِّ شيء عنده سبحانه وجودات غير محدودة ولا مقدرة، فهي من عالم الأمر قبل الخلق.

وحيث عبَّر سبحانه بلفظ الجمع المشعر بالكثرة، فلا بدَّ أنْ يكون الامتياز بين أفرادها بشدة الوجود وضعفه، وهو: المراتب دون الامتياز الفردى بالمشخصات مثل الافراد من نوع واحد، وإلا وقَعَ الحدُّ والقدر. وقد أنبأ سبحانه أنْ لا قدر قبل التنزل، ففي هذا القسم من الموجود الأمري غير المحدود أيضاً، مراتبُ واقعة.

---

(1) سورة فصلت الآية: ١٢.

(2) سورة الطلاق الآية: ١٢.

(3) سورة الأحزاب الآية: ٣٨.

(4) سورة الحجر الآية: ٢١.

وليس التنزُّل عن هناك كيفما كان بالتجافي وتخلية المكان السابق بالنزول إلى اللاحق، لقوله سبحانه:

﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[1] (الآية).

وهذه الموجودات غير المحدودة حيث لا حدَّ لها ولا بينها، فهي موجودة جميعاً بوجود واحد على كثرتها، ومشتملة على جم الكمالات التي في عالمها، ولا خبر ولا أثَر هناك عن الاعدام والنواقص التي تفيدها المادة، والامكان أو الحد والفقدان.

ولا تزال تتنزل عن مرتبةٍ إلى مرتبة، حتى تشرف على عالم الأجسام، وهي في جميع مراحلها مشتملةً على جمل الكمالات مبرَّأة عن النواقص. غير أنها في كل مرتبة، بحسب ما يقتضيه حال المرتبة من قوة الموجود وضعفه، ولا حجاب ولا غيبوبة بل أشعة الكل واقعة من الكل على الكل، ومنعكسة من الكل إلى الكل، فهي أنوار طاهرة، ولذلك وصف سحبانه الروح الذي هو من عالم الأمر بالطهارة والقدس فقال:

﴿وأيدناه بروح القدس﴾[2].

وقال:

﴿قل نزله روح القدس﴾[3].

وحكى سبحانه ذلك عن الملائكة فقال سبحانه:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾[4].

أي نظهر قدسك وطهارتك عن النواقص بذواتنا وأفعالنا، حيث أن ذواتنا

---

(١) سورة النحل الآية: ٩٦.
(٢) سورة البقرة الآية: ٨٧.
(٣) سورة النحل الآية: ١٠٢.
(٤) سورة البقرة الآية: ٣٠.

بأمرك وأفعال ذواتنا بأمرك كما يومي إلى جميع المرحلتين قوله سبحانه:

﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾.

فالآية الثانية فرع للأولى، فهو إكرام ذاتيّ لهم. هذا وليس في أعمالهم إلّا حيثية الأمر إذ هو المصحح للثناء عليهم وإكرامهم منه سبحانه، وإلاّ ففي كل فعل من كل فاعل أمر منه سبحانه، كما يستفاد من قوله سبحانه:

﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء﴾.

وقوله:

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (الآيات).

فتخصيصه سبحانه عملهم بالذكر بأنه بأمره سبحانه، ليس إلاّ لأنّ عملهم لا جهة فيه إلاّ جهة الأمر، وكذلك ذواتهم، ويشير إليه بآيات أخر كقوله تعالى:

﴿قل كلا يعمل على شاكلته﴾[1].

وقوله:

﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾[2].

وقوله:

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾[3] (إلى غير ذلك من الآيات).

وأيضاً فإن الملائكة، لم تقل: أتجعل فيها من يفسد. الخ. ولم يستفد صدورُ هذه المعاصي إلاّ بالاستفادة من قوله: إني جاعل في الأرض خليفة أو أنّ الخلافة، وهي قيام الشيء مقام آخر ونيابته عنه، تقتضي اتصاف الخليفة

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ١٠٤.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٥٨.

بأوصاف الحق سبحانه، وهي محمودة مقدسة، لا يصح في قباله دعواهم؛ إنا نسبح بحمدك ونقدس لك، فلم يبق للاستناد إلا الجعل في الأرض، فمن هنا فهموا أنه سيؤثر في أفعاله وسيتلون بكدورة الأرض وظلمات الطين ذاته، ولذلك عبّروا عن الخليفة بالموصول والصلة، فقالوا: من يفسد فيها، ويسفك الدماء، وهو الاسم، فيكون مقابلته بدعواهم: إنا نسبح بحمدك ونقدس لك، مقابلةً بالاسم. فهم طاهرون مقدسون في أسمائهم أي ذواتهم من حيث الوصف. وهو المطلوب. . .

ولنرجعْ إلى ما كنا فيه؛ وبالجملة: فعالَمُ الأمر عالم القدس والطهارة، وسمّي بالأمر لكونه لا يحتاج في وجوده إلى ازيد من كلمة كنْ. ومن هنا ربما، يعبر سبحانه عنه بالكلمة كقوله:

﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾[1].

كما يعبر عن القضاء المحتوم بالكلمة كقوله:

﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾[2].

وقال:

﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾[3] (الآيات).

والقضاء من عالم الأمر عنه، وقد اطلق عليه الأمر كثيراً كقوله سبحانه:

﴿أتى أمر الله﴾[4].

وقوله:

﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾[5].

---

(١) سورة النساء الآية: ١٧١.
(٢) سورة غافر الآية: ٦.
(٣) سورة الصافات الآية: ١٧١.
(٤) سورة النحل الآية: ١.
(٥) سورة الأحزاب الآية: ٣٧.

وقوله:

﴿والله غالب على أمره﴾[1] إلى غير ذلك.

وقال سبحانه:

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾[2] (الآية).

إذ التبديل فرع قبول التغير الذي هو من لوازم المادة والقوة، وعالم الأمر كما عرفت مبرأ منها. وقال سبحانه:

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[4] (الآية).

فتبين من جميع ذلك أنَّ عالم الأمر مؤلف من عوالم كثيرة مترتبةٍ بعضها لا تحديد ولا تقدير لموجوداتها، غير أنها معلولة له سبحانه، بل هي موجودات طاهرةٌ نورية متعالية دائمة غير نافدة ولا محدودة، وبعضها يشتمل على موجودات نورية طاهرة غير نافدة لكنها محدودة، ويشتمل الجميع على جميع كمالات هذه النشأة الجسمانية ولذائذها ومزاياها، بنحو أعلى وأشرف غير مشوب بنواقص المادة واعدامها وكدوراتها وآلامها، ولا حجاب يحتجب الحق سبحانه به عنها، كل ذلك بحسب وجودهم ومراتب ذواتهم.

ثم إن الحق سبحانه بيَّن أنَّ الروحَ من هذا العالم، فقال تعالى:

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[5].

---

(١) سورة يوسف الآية: ٢١.
(٢) سورة يوسف الآية: ٦٤.
(٣) سورة الكهف الآية: ١٠٩.
(٤) سورة لقمان الآية: ٢٧.
(٥) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

ومما مرَّ من البيان تعرف أن قوله سبحانه:

﴿قل الروح من أمر ربي﴾.

يشتمل على بيان الحقيقة، وليس استنكافاً عن الجواب والبيان. فبيَّن سبحانه أنَّ الروحَ موجود أمري غير خلقي، كما يومي إليه قوله تعالى:

﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1].

فظهر بذلك أنه مشارك مع سائر موجودات عالم الأمر، في شؤونهم وأوصافهم وأطوارهم، ثم قال سبحانه:

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾[2].

فبيَّن أن الروح كان غير البدن، وأنه إنما سكن هذه البنية بالنفخ الربّاني، وهبط إليه من مقامه العلوي، ثم قال سبحانه:

﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾[3].

فبان بذلك أن هذا الطائر القدسي سيترك هذه البنية المظلمة بجذب رباني، كما سكنها أولاً بنفخ رباني، وقد قال سبحانه:

﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾[4].

ثم قال سبحانه:

﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد﴾[5].

زعماً منهم أنهم هم الأبدان وهي تتلاشى وتضل في الأرض، فقال سبحانه:

﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾[6] (الآية).

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٤.
(٢) سورة الحجر الآية: ٢٩.
(٣) سورة الأنبياء الآية: ١٠٤.
(٤) سورة الأحقاف الآية: ٣.
(٥) سورة السجدة الآية: ١٠.
(٦) سورة السجدة الآية: ١١.

فبيّنَ سبحانَه أنَّ الذي يلقى الله تعالى، ويتوفاه ملك الموت، أي يأخذه ويقبضه، هو روحُهم، وهو نفسهم المدلول عليها بلفظ كم، فما يحكى عنه الإنسان بلفظ أنا هو روحه، وهو الذي يقبضه الله ويأخذه بعد ما نفخه، وهو غيرُ البدن. ثم قال سبحانه:

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾[2].

فبينَّ أنّ للروح مع ذلك اتحاداً ما مع البدن، فبهذه الحياة الدنيا فهو هو. ويشير إليه ما في العلل مسنداً عن عبد الرحمن عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت لأي علة إذا خرج الروح من الجسد وجد له مساً، وحيث ركبت لم يعلم به قال: لأنه نما عليها البدن (ص)، وقال سبحانه:

﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾[3].

قال سبحانه:

﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾[4] (الآية).

فبيّن سبحانَه أنه ملك الروح بعد توحيده مع البدن واعطائه جوارح البدن وأعضائه قوى سامعةً وباصرة، ومتفكرة عاقلة، وتمم له إذ ذاك جميع الأفعال الجسمانية التي ما كان يقدر على شيء منها لولا هذا الاعطاء والجعل، وهيأ سبحانه له جميعَ التصرفات الجسمانية في عالم الاختيار، وسخَّر له ما في السموات والأرض، وسخر له الشمس والقمر دائبين، وسخر له الليل والنهار، قال سبحانه:

---

(١) سورة طه الآية: ٥٥.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٥.
(٣) سورة السجدة الآية: ٩.
(٤) سورة النحل الآية: ٧٨.

﴿مسخرات بأمره﴾[1].

فالتسخير والتدبير للأمر وبالأمر دون الخلق. وإنما للخلق، وهو مجموع عالم الأجسام الآلية والأداتية. قال تعالى:

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[2] (الآية).

فهذا أول الفروق التي يفترق بها الروح، عن الملائكة، وهما جميعاً من عالم الأمر، فالروح موجود مجرد، محلّى بحلل الكمالات الحقيقية، مُبَرَّأ عن القوة والاستعداد والمنقصة والعدميات، منزه عن الاحتجاب بحجب الزمان والمكان، سائر في مراتب الأمر ومدارج النور، وهو مع ذلك يقبل أن ينزل عن عالمه إلى هذا العالم فيتحد بالأجسام ويتصرف في جميع الأنحاء الجسمية والجهات الاستعدادية والامكانية، بالاتحاد من غير واسطة، بخلاف الملائكة فانهم محدودو الوجود بعالم الأمر، لا يجاوزون أفق المثال.

ثم إنه سبحانه قال:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار وهم فيها خالدون﴾[3] (الآية).

فبين أنَّ هبوطهم إلى الأرض يوجب انشعاب الطريق إلى شعبتين: شعبة السعادة، وشعبة الشقاوة. وتفرقهم فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، ثم قال سبحانه:

﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾[4].

فبين أن طريق الشقاوة في الحقيقة هلاك وبوار فهناك منتهى سفرهم من عالم القدس وأما طريق السعادة فهو الحياة الجارية الدائمة قال تعالى:

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٤.
(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٤.
(٣) سورة البقرة الآية: ٣٨.
(٤) سورة إبراهيم الآية: ٢٨.

﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾[3].

وقد قال تعالى:

﴿كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾[4].

فَبَيَّنَ أن الفريقين يعودان على ما كانا عليه قبل النزول والهبوط، وتبيَّنَ به أنّ أصحابَ الشقاء يعيشونَ ويحيونَ بعد العود عيشاً في صورة البوار، وحياة في صورة الموت، قال سبحانه:

﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾[5].

وان أصحاب السعادة يعودون إلى ما كانوا عليه من الحياة الطيبة، قال تعالى:

﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾[6].

وهم الذين يؤجرون بأعمالهم الناشئة عن ذواتهم السعيدة، ويزيدهم الله من فضله ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب. فغاية هذا السير والسرى والهبوط والنزول من فريق الروح، هلاك بعضهم في الدنيا ورجوع بعضهم إلى مقامه الشامخ الأول مع مزايا اكتسبها، قال تعالى:

---

(١) سورة يونس الآية: ٢.

(٢) سورة النحل الآية: ٩٦.

(٣) سورة العنكبوت الآية: ٦٤.

(٤) سورة الأعراف الآيتان: ٢٩ ـ ٣٠.

(٥) سورة الأعلى الآية: ١٣.

(٦) سورة النحل الآية: ٩٧.

﴿قل الله خالق كل شيء وهو الـواحد القهـار. أنزل من السـماء ماء فسـالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفـاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾[*] (الآيات).

وهذا هو الفرق الثاني بين الروح والملائكة، فالروح بـواسطة نـزوله إلى هـذه النشأة وإقامته فيها يقـع على مفتـرق طريقـين، ومنشعب خطين، غـاية أحـدهما البـوار والهلاك، وغـاية الآخـر التمكن في معـارج العليـاء وجنـة الخلد، ومقـام القرب والملائكة، بخلاف ذلك فليس لهم إلّا خط واحد وهو خط السعادة.

ثم إنه سبحانه قال في وصف المؤمنين:

﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾[1].

فعلمنا أنّ هناك روحاً آخر غـير ما يشتـرك فيه جميـع أفراد الإنسـان يختص به المؤمنون، وهو المسمّى بروح الإيمان. وقال سبحانه:

﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾[2].

فعبر عنه بكلمة التقوى وبيَّن أن هذا الروح يلازم التقوى.

وفي الكـافي، مسنداً عن أبي بصـير، عن أبي عبد الله (ع). قـال: ان للقلب أذنين، فاذا همَّ العبد بذنب، قال له روح الإيمان: لا تفعل. وقال له الشيطان: افعل. وإذا كان على بطنها، نزع منه روح الإيمان: (الحديث).

ثم قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسولـه يؤتكم كفلين من رحمته ويجعـل لكم نوراً تمشون به﴾[3].

(*) سورة الرعد الآيتان: ١٦ - ١٧.

(١) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

(٢) سورة الفتح الآية: ٢٦.

(٣) سورة الحديد الآية: ٢٨.

فعبر عنه بالنور وبيَّن ذلك في آيات أُخر.

ثم قال سبحانه:

﴿يلقي الروح من أمره على من يشآء من عباده لينذر يوم التلاق﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشآء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[2] (الآيات).

فبيَّن أنَّ هناكَ روحاً آخرَ يختصُّ به الرسل (ع)، وهو نور يهتدي به الغير، كما أنَّ روح الإيمان نورٌ يهتدي به الإنسانُ في نَفْسه.

وقوله: «ما كنت تدري» الخ يبيِّنُ أنَّ هذا الروح مهيمن على روح الإيمان، حيث يفيد علم الكتاب ونور الإيمان، فظهر أنَّ اختلاف الروحين انما هو بشدة الوجود وضعفه، وليس بالاختلاف الشخصي.

وقوله: «وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم» (الآية) إشارة إلى أنَّ بينهُ وبينَ الروح الإنساني، اتحاداً. فالاختلاف بينهما إيْضاً بالشدة والضعف دون الشخص؛ فما هناك إلاَّ روح واحد.

ثم قال سبحانه:

﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿وهم بأمره يعملون﴾[4] (الآية).

---

(١) سورة غافر الآية: ١٥.

(٢) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٣) سورة النحل الآية: ٢.

(٤) سورة الأنبياء الآية: ٢٧.

فبين بذلك أنّ الروح أرفعُ منزلةً من الملائكة، وأنه يتحد معهم قائماً عليهم كما يشير إليه قوله سبحانه:

﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿قل نزله روح القدس﴾[3] (الآيات).

فعبَّر سبحانه في كلامه تارة بالروح وتارة بجبرئيل (ع)، وهو يعطي الاتحاد الذي ذكرناه، وأنت تعلم أنَّ هذا غير الاتحاد والحلول المقدس عنه ساحة الوجود.

وفي البصائر مسنداً عن الحسن بن إبراهيم، عن الصادق (ع)، قال: سألته عن علم المعالم، فقال: إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح البدن، وروح القدس، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح الإيمان. وفي المؤمنين أربعةُ أرواح (إنما فُقِدَ روح القدس): روح البدن، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح الإيمان. وفي الكفار ثلاثة أرواح: روح البدن، وروح القوة، وروح الشهوة. ثم قال (ع): وروح الإيمان يلازم الجسد، ما لم يرتكب كبيرةً؛ فإذا ارتكب كبيرة، فارقهُ الروح. ومن سكن فيه روح القدس فإنَّهُ لا يرتكب كبيرة أبداً.

وفي تفسير العياشي، عن الصادقيْن عليهما السلام، في قوله تعالى:

﴿يسألونك عن الروح﴾ الآية.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٩٧.
(٢) سورة الشعراء الآية: ١٩٤.
(٣) سورة النحل الآية: ١٠٢.

إنما الروح خلق من خلقه، له بصر وقوة، وتأييد يجعله في قلوب المؤمنين والرسل، (الحديث). وفيه إشعار ما باتحاد الروحَيْن.

ويؤيده ما رواه العياشي أيضاً في الآية عن أحدهما (ع)، سئل عن الروح.

قال: التي في الدواب والناس.

قيل: وما هي؟

قال: هي من الملكوت من القدرة.

وفي تفسير القمي، عن الصادق، أنه سئل عن هذه الآية، فقال: خَلْقٌ أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ، وهو مع الأئمة، هو من الملكوت.

وفي تفسير العياشي عنه (ع)، أنه سئل عنها، فقال: خلقٌ عظيم أعظم من جبرائيل وميكائيل لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد ﷺ ومع الأئمة، يسددهم وليس كلما طلب وجده. (الحديث). ويستشم منه أن الروح المؤيد به الرسل (ع) أيضاً ذو مراتب.

وفي تفسير القمي عن الصادق (ع)، أن الروح أعظم من جبرائيل، وأن جبرائيل أعظم من الملائكة، وأن الروح هو خلق أعظم من الملائكة. أليس يقول الله تبارك وتعالى:

﴿تنزل الملائكة والروح...

وفي تفسير القمي عن الصادق (ع)، وفي الكافي عن الكاظم (ع):

نحنُ والله المأذونون لهم، يوم القيامة، والقائلون صواباً.

قيل: ما تقولون إذا تكلمتم؟

قالا: نمجد ربنا ونصلي على نبينا ونشفع بشيعتنا ولا يردنا ربنا. (الحديث).

يشيران عليهما السلام إلى قوله تعالى:

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾[1] (الآية).

وفيه من الإشارة إلى توحيد الأرواح ما لا يخفى.

وهذا هو الفرق الثالث بين الملائكة والروح؛ فالروح من الأمر وهو أرفع درجة من الملائكة ومهيمن عليهم. (والله أعلم).

وقوله تعالى:

﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشآء من عبادنا﴾[2] (الآية).

مع كون الملائكة قائمةً بالروح، ومتحدة ذاتاً وفعلًا به كما مرّ، يعطي أنهم أنوار الهية وحينئذٍ فيتضح اتضاحاً ما قاله تعالى:

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[3] (الآية).

وقوله سبحانه:

﴿لهم أجرهم ونورهم﴾[4] (الآية).

وقوله سبحانه:

﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري﴾.

إلى أن قال تعالى:

﴿نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾[5].

ولنقتصر على هذا المقدار من الكلام والله الهادي.

---

(١) سورة النبأ الآية: ٣٨.
(٢) سورة الشورى الآية: ٥٢.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥٧.
(٤) سورة الحديد الآية: ١٩.
(٥) سورة النور الآية: ٣٥.

خاتمة

تناسب ما مر من الكلام

قال سبحانه:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾[1].

قوله سبحانه:

﴿قالوا اتجعل فيها﴾ (الآية).

ظاهر في أنهم قايَسوا خلافةَ خليفةِ الأرض على خلافتهم السماوية، وذَكَروا أنّ الخِلافَة السماويةَ، خلافةٌ تامَّةٌ تُظْهِرُ تنزُّهَ الحقِ سبحانه وقدسه، بخلاف خلافة الأرض، فإن فيها ظهورَ الفسادِ وسفكَ الدماء، وبالجملة السيئات التي أخبر الحق سبحانه في كتابه بأنها ليست منه، وذلك يوجب تَغَيراً في حقيقة الخلافة، وعدم بقائه على قدسه، حتى يحكي كمال الحق بما يليق بقدس ذاته سبحانه، وذلك كان كالإستفسار منهم لكيفية هذه الخلافة مع هذه النواقص، دون الاعتراض عليه وتخطئته سبحانه.

والدليل على ذلك قولهم:

﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ (الآية).

وقوله تعالى:

﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ (الآية).

بيان لنقص خلافتهم؛ بأن اسم العلَم لم يظهر فيهم تمام الظهور، وليس من قبيل الإسكات كما يقوله أحدنا لمن ينكر شيئاً من أمره إني أعلم ما لا تعلم.

ويشرح ذلك قوله سبحانه:

﴿وعلم آدم الأسماءَ كلَّها ثم عرضهم﴾ (الآية).

يظهر من السياق أنّ هذه الأسماء كلها، موجودات حية عالمة عاقلة، وأنها عينُ الأسماء التي علمها سبحانه آدم (ع). كما أن الاسمَ عينُ المسمَّى، وان الذي علمه هو جميع الأسماء، وهي حية عالمة، فالمراد بالأسماء غيرُ الألفاظ قطعاً، بل الذوات من حيث اتصافها بصفات الكمال، وهي ظهوراتها التي يتفرع على ذواتها. يدل عليه قوله: انبئوني بأسماء هؤلاء، وقوله:

﴿فلما انبأهم بأسمائهم﴾ (الآية).

وحينئذ فينطبق على قوله سبحانه:

﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

فهذه الأسماء هي خزائن الغيب غير المحدودة وغير المقدَّرة وفيها كلُّ شيء.

ويظهر من هنا أن هؤلاء الملائكة المخاطبين، إنما كانوا هم الذين لا يرقى وجودهم عن عالم التقدير والحدود، ويشير إليه قوله تعالى:

﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ الخ.

وقوله:

﴿إني أعلم غيب السموات والأرض﴾[1] الآية.

وبهذا يتضح ما في بعض الأخبار أنَّ لله ملائكة لم يشعروا أنَّ الله خَلَق عالماً ولا آدم.

وما في أخبار أخَر، أنّ الملائكة لما عرفوا خطأهم في قولهم لاذوا بالعرش، ثم قال سبحانه في موضع آخر من كتابه:

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾[2].

والمفاتح هو الخزائن أو مفاتيحها، فعلم آدم إنما هو علمه سبحانه المحجوب عن الملائكة، وهذا لا يتحقق بغير الولاية كما حقق في محله، فالذي صنعه سبحانه هو أنه وضع في جبلة آدم الولايةَ والتخلق بجميع الأسماء، والصفات في جميع الأسماء، وقد حجب عنه الملائكة ولم يصيروا بعد إنباء آدم إياهم الأسماء مثل آدم، وإلاّ لم يصح الجواب الذي أجاب به سبحانه عنهم، وهو واضح.

ثم اعلَمْ أنَّه سبحانه لم يذكر قصة هذه المخاطبة في كتابه، في أكثر من موضع واحد من سورة البقرة، بل بدل هذا التفصيل بنحو قوله سبحانه:

﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾[3] (الآية).

فيظهر أن قوله:

﴿ونفخت فيه من روحي﴾ (الآية).

يشتمل على إجمال ما يفصله قوله سبحانه:

---

(١) والشاهد على ذلك أنه سبحانه كرر قوله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ بتبديله، بقوله: ﴿إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ الخ؛ فللسموات والأض غيبٌ كما أنّ لهما شهادة، والأسماء التي علمها سبحانه آدم (ع) هي غيبها.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٥٩.

(٣) سورة ص الآية: ٧١.

﴿وعلم آدم الأسماء﴾ الخ .

ويظهر منه حقيقة هذا الروح الذي نفخه سبحانه ووجه تخصيصه بنفسه بقوله :

﴿من روحي﴾ (الآية) .

ولم يرد في القرآن إضافة الروح إليه سبحانه إلاَّ في قصة آدم، والباقي على غير هذا النحو من الإضافة كقوله سبحانه :

﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾[1] .

وقوله :

﴿نزل به الروح الأمين﴾[2] .

وقوله :

﴿وأيدناه بروح القدس﴾[3] (الآيات) .

وقوله سبحانه :

﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ الخ .

يشعر بأنه كان هناكَ أمرٌ ما مكتوم، وقوله سبحانه بعد ذلك :

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[4] (الآية) .

حيثُ عبَّر بقوله :

﴿وكان من﴾ الخ .

---

(١) سورة مريم الآية: ١٧.
(٢) سورة الشعراء الآية: ١٩٣.
(٣) سورة البقرة الآيات: ٨٧ و٢٥٣.
(٤) سورة البقرة الآية: ٣٤.

كالبيان لهذا الأمر المكتوم، ولذا ورد في الروايات كما في تفسير القمي، وغيره أن المراد مما كانوا يكتمون ما كان يضمره إبليس من عدم السجدة لآدم (ع).

وقد بينا في رسالة الوسائط[1] أن هذه النشأة المتقدمة على الدنيا لا تتمايز فيها السعادة والشقاوة، وإنما موطنُ التمايز ومبدؤه الدنيا، ولذلك فحال إبليس هناك حال سائر الملائكة، وقد شمله الخطاب بالسجود كما يفيده الاستثناء، ثم تميَّز إبليس من الملائكة، وصار رجيماً. ويستشعر ذلك من قوله سبحانه:

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين إلى أن قال: قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[2] (الآيات).

فقوله:

﴿قلنا اهبطوا منها﴾ الخ.

وقال سبحانه في موضع آخر:

﴿قلنا اهبطا﴾ الخ.

وفي رواية القمي عن الصادق (ع). «ولم يدخلها ابليس». (الحديث).

وقال سبحانه بعد حكاية إبائه عن السجدة:

﴿قال اخرج منها فانك رجيم﴾[3] (الآية).

---

(١) رسالة الوسائط = هي الرسالة الرابعة من رسائل التوحيدية للمؤلف، تبحث في العلاقة بين الله تعالى وبين نشأة الطبيعة في ٦٣ صفحة من الحجم المتوسط. فيها أخبار عن الملائكة والجن وإبليس والشياطين... الخ.

(٢) سورة البقرة الآية: ٣٥. (٣) سورة الحجر الآية: ٣٤.

يوجب اشكالاً في كيفية وسوسته (لعنه الله) في الجنة، وهو ممنوع من وروده ووسوسته لآدم، وهو معصوم، وينحل الاشكال بما ذكرناه من عدم تميز السعادة والشقاوة قبل الهبوط.

ويظهر منه أن عصيان آدم لم يكن بالعصيان المنافي لعصمته (ع). وإنما هو عصيان جبلي ذاتي، وهو اختياره الهبوط إلى الدنيا، وهو ترك عالم النور والطهارة واختيار الظلمة والكدورة، وإليه يلمح قوله سبحانه:

﴿فتكونا من الظالمين﴾.

وهذا معنى قوله سبحانه:

﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ الآية.

والدليل على قوله سبحانه بعده:

﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ (الآية).

وقد قال سبحانه:

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1].

ولو كانت معصيته (ع) معصيةَ فسق، لكانت جنته دار اختيار، فكانت من دار المادة والظلمة، فكانت في الأرض دون السماء.

وقوله سبحانه:

﴿قلنا اهبطوا منها﴾.

إلى قوله:

﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ الخ.

---

(١) سورة طه الآية: ١٢١.
(٢) سورة طه الآية: ١٢٢.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥٨.

سياق الكلام يعطي أن الهبوط إنما كان من غير الأرض، وهو السماء إلى الأرض، وهو ظاهر قوله في موضع آخر:

﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾[1] (الآية).

ويدل عليه قول علي (ع)، في احتجاجه على الشامي حين سأله عن أكرم وادٍ على وجه الأرض، فقال (ع) له: وادٍ يقال له سرانديب سقط فيه آدم من السماء.

وفي النهج في خطبة له (ع) يصف فيها قصة آدم (ع): ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولَقّاه كلمة رحمته ووعده المردّ إلى جنته، وأهبطَهُ إلى دار البلية، وتناسل الذُرِّيَة (الخطبة)[2].

يشير (ع) بقوله)

﴿ووعده﴾ الخ.

إلى قوله سبحانه:

﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع﴾ الخ.

وقوله:

﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ (الآية).

ومن الممكن أنْ يكون قوله سبحانه:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ الخ.

تلميحاً إلى أنّ ذرية آدم مشاركون مع أبيهم في الخروج من الجنة بعد دخولها.

ويؤيد ذلك بقوله تعالى:

﴿فإما يأتينكم مني﴾ الخ.

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٥. (٢) نهج البلاغة الجزء الأول ص: ١٦.

فإن إبليس يائس من رحمتِهِ وقد قال فيه:

﴿قـال فالحق والحق أقـول لأملأن جهنم منـك وممن تبعك منهم أجمعين﴾[1] (الآية).

فـلا يبقى للخـطاب إلاَّ آدمُ وزوجتُـه، والخـطاب لهم إنمـا هـو بـالتثنيـةِ دون الجمع.

وما في بعض الروايات أنّ في الهابطين حيةً، كان إبليسُ ألقى وسوستَـهُ إليهما في الجنّـة بواسـطتها، لا يصحـح الخطاب بـالجمع، فـإن الحية وهي غـيرُ مكلفة بتكليفِ آدم وزوجتِـه، خارجـةٌ عن الخـطاب قـطعـاً، فليس إلا أنّ الحكمَ لآدم وزوجتِه وذريتهما، وقد قال سبحانه في موضع من كتابه:

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾[2] (الآية).

وكيف كان، فظاهر سياق الآيات أن دخولهما الجنة كان بعد تسويتهما، والنفخ والسجود، وهو المتحصل بل الصريح من الروايات.

ومما في بعض الروايات وهي: روايتان أو ثلاث: أنه سبحانه نفخ في خلق آدم يوم الجمعة، وأدخله الجنة بعد الظهر، من يومه ذلك وما لبث في الجنـة إلاّ ست ساعات من النهار أو سبعاً حتى خرج منها.

ويظهر من الجميع أنّ ذلك كان حالاً برزخياً له، ولزوجته. وتمثل لهما الشجـرة المنهية فيهـا، فأكـلا منها وظلما أنفسهـما، وكان ذلـك منهـما هبـوطـاً إلى الأرض وحياة فيها، وظهور سوآتهما.

وورد في الخبر أنها كانت شجرة الحنطة والسنبلة، وورد أيضاً أنها كانت تحمل جميـع الأثمـار كسـائـر أشجـار الجنـة وورد أنها كـانت شجـرة علم محمـد وآلـه وولايتهم.

---

(١) سورة ص الآية: ٨٤.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١١.

وهذه التعبيرات جميعها مستقيمة واضحة عند الممارس المستأنس بالتعبيرات المتشابهة، التي وردت في الشرع.

وعلى أي حال كانت شجرة، كان أصلها يستوجب الهبوط إلى الدنيا، وحيث أن الغايةَ فيها هي التحقُّق بعلم الأسماء كلها، كما يتبين من سابق الآيات، وهي الولاية، فلذلك عبَّر عنها تارة بشجرة الحنطة، وتارة بشجرة تحمل كل ثمرة، وتارة بشجرةِ علم محمد وآله.

ويمكن أنْ تكون شجرة الحنطة والانسان يعيش بها، فيؤول إلى تمثل الحياة الدنيا له (ع). ويؤيده قضية ظهور السوآت وبدوها، ووري عنهما والله العالم.

ويمكن أنْ يكون إلى ما مرت الإشارة، بقوله سبحانه:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولاً﴾[1] (الآية).

فقوله سبحانه:

﴿إنه كان ظلوماً﴾ الخ.

يحكي عن ظلم سابق، وجهالة سابقة، فموطن هذا العرض إن كان هو الوجود الدنيوي، فالظلم في نشأة سابقةٍ والأمانة هي التكليف كما يفسره به بعض الروايات وإنْ كانَ قبل الوجود الدنيوي، فالظلم قبلها بطريق أولى، والأمانةُ هي الولاية كما يفسره بعض آخر من الروايات، وكلاهما صحيحان؛ فإن الدنيا جاريةٌ على ما جرى عليه الأمرُ قبلَها من سعادة وشقاوة.

وقوله سبحانه بعده:

﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾[2] (الآية).

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٧٢.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٧٣.

بيان لغاية عرْض الأمانة. وقد قسَّم الإنسان بقسمين: مؤمنٌ ومنافق إشعاراً بأنَّ الكل حاملون؛ فمنهم من حمله ظاهراً وباطناً، ومنهم من حمله ظاهراً إلا باطناً، ومعلوم أن ظاهرَ تلك النشأة باطن في هذه النشأة وبالعكس؛ فالكافر في هذه النشأة كافر في ظاهره، لكنه معترف بجبلته وفطرته فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيِّم. وبالجملة فينطبق (الإيتان) على قضية أخذ الميثاق، وقد شرحناها بعض الشرح في رسالة الأفعال[1] وهي الرسالة الثالثة من كتاب التوحيد[2].

---

(١) رسالة الأفعال هي الرسالة الثالثة من كتاب التوحيد، وهي تبحث في أفعال الله سبحانه وتعالى، وما يتفرع من ذلك، وهي عبارة عن دروس توجيهية في ٤٤ صفحة.

(٢) يذكر المؤلف أن الانتهاء من كتابة هذه الرسالة كان في ليلة الأحد لعشرين خلون من شهر صفر الخير وهي ليلة الأربعين المقدسة من سنة ١٣٦١ هـ. في قرية شاد أباد من أعمال تبريز.

الرسالة الثانية

رسالة الإنسان في الدنيا

رسالة الإنسان في الدنيا

هذه رسالة الإنسان في الدنيا وهي الرسالة الثانية من كتاب الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين سيما محمد وآله الطاهرين.

هذه رسالة الانسان في الدنيا، نضع فيه إجمال القول في ما يصير إليه حال الإنسان في وروده في دار الحياة الدنيا بعد ما كان عليه قبل الدنيا، مما عرفنا ملخَّصَهُ في رسالة الإنسان قبل الدنيا، والله سبحانه هو المستعان.

الفصل الأول
علومنا الذهنية

اعلم أن المعاني التي عندنا، وهي صور علومنا الذهنية على قسمين:

أحدهما، المعاني التي تقع على الموجودات الخارجية في نفسها مطابقة بها ومعها، بحيث أنها في نفسها كذلك سواء انتزعنا منها تلك المعاني وتعقلناها وأوقعنا عليها هذه المعاني أولاً، وذلك كمعنى الأرض والسماء والكواكب والإنسان، فان مطابقات هذه المعاني موجودةٌ في الخارج في نفسها، سواءً انتزعنا منها هذه المعاني وتعقلناها في أذهاننا وأوقعنا المعاني المنتزعة عليها أولاً، وهذه المعاني هي التي نسميها بالحقائق.

وثانيهما، المعاني التي نوقعها على الأمور الخارجية لكنها بحيث لو أعمضنا وقطعنا النظر عن التعقل والتصور لم يكن لها في الخارج تحقق، ولا لها وقوع، وذلك كمعنى الملك مثلاً فإنَّه معنى به يتمكن المالك من أنحاء التصرفات في العين المملوك من غير أن يزاحمه فيها أحد من نوعه، وكمعنى الرئاسة فإنها معنى بها يتمكن الإنسان الرئيس من إدارة الأمور في حوزة رئاسته وجلب طاعة مرؤوسيه. لكننا إذا تأملنا في مورد هذين المعنيين لم نجد هناك في الخارج إلا إنساناً وعيناً خارجية مثلاً، ولم يكن لولا تعقلنا وتصورنا في الخارج عين ولا أثر من معنى الملك والمالك والمملوك والرئاسة والرئيس والمرؤوس، ولذلك نرى في هذا القسم من المعاني من التغير والتبدل والاختلاف بحسب اختلاف انظار العقلاء، ما لا يتحقق ذلك في قسم الحقائق البتة، فترى أمة من الناس تعقد على ملكية شيء لا يعقد عليها آخرون، ويذعن برئاسة إنسان لا يذعن بها فيه

آخرون. والحقائق لا يمكن فيها ذلك، فالانسانُ إنسان عند الكل ودائماً، وسواءً تعقلوا معنى أنه إنسان أو لم يتعقلوا ذلك.

وهذه المعاني غير الحقائق، حيث أنها ليست في الخارج حقيقة في الذهن، لكنها ليست متحققة في الذهن بايجاده واختلافه إياها من غير استعانة بالخارج، فان الذهن يوقعها على الخارج بتوهمها أنها في الخارج ووقوعها على الأمور الخارجية على وتيرة واحدة من غير اختلاف وتغير من هذه الحيثية، فالكلام وهو الصوت المؤلف الدال على معنى بالوضع كلام، ولا يصدق عليه الملك مثلاً ولا الرئاسة ولا غيرها، ولو كانت بإيجاد من الذهن من غير ارتباط واستعانة من الخارج لكانت إمَّا غير صادقة على الخارج أصلاً، وإمَّا واقعة على جميع ما في الخارج لاستواء النسبة مع عدم الرابطة.

فثبت ان انتزاع الذهن إياها إنما هو بالاستعانة من الخارج أي من المعاني الحقيقية التي عند الذهن، وحيث أن هذا الارتباط ليس بالحقيقي لعدم تحققها في الخارج، فهو وهمي بتوهم الذهن انها هي المعاني الحقيقية، وهي إعطاء حد الأمور الخارجية لها. فهذه المعاني تتحقق باعطاء الذهن حد الأمور الحقيقية لما ليس لها، ووضعها فيما ليست فيه، فهي معان سرابية وهمية مثلها بين المعاني مثل السراب بين الحقائق والأعيان. وهذا القسم من المعاني هو الذي يسمّيه بالاعتباريات والوهميات؛ فالأولى منها: خارجية حقيقية، والثانية ذهنية وهْميَّة غير حقيقية.

ثم إنا إذا أخذنا نتأمل الموجودات الخارجية الحقيقية وركزنا التأمل في كل واحد منها بالأخذ بمجموع دائرة وجوده من حين يظهر في الوجود، ثم يديم بقاءه وحياته المختصة به حتى ينتهي إلى البطلان والعدم، ورددنا كل أمر يرتبط به من حيث هو مرتبط إلى داخل محيط هذه الدائرة المفروضة، بحيث لا يشذُّ منه شيءٌ منها ولا يدخله شيء غيرها، وجدنا هذا المجموع يساوي في الوجود أمراً واحداً حقيقياً وموجوداً متفرداً، كل جزء من أجزاء المجموع المفروض يرتبط بالآخرين

بـروابط خاصـة به وصـولاً للوحدة الحقيقيـة الموجـودة، وهذا لا شـك فيهـا ولا ريب.

ثم إذا حلَّلنا هذا الموجود الواحد على سعة دائـرة وجوده، وجـدناه عـلى كثرة أجزائه وجهاته ينحـلُّ إلى أمر ثـابت في نفسه كـالأصل، وأمـور أُخَرَ تـدورُ عليه وتقوم به كالفروع تتفرع على الأصل، وهذا الأصـل هو الـذي نسميه بـالذات، وهذه الفروع هي التي نُسمِّيها بالعوارض واللواحق ونحو ذلك، وهذا معنى سارٍ في كل موجود في وعاء الوجود، مثال ذلك الإنسـان؛ فإن فيـك أمراً تحكي عنـه بلفظ أنا وكل معنى غيره مرتبط به ومتفرع على هذه الذات المحكي عنها «بـأنا». وهذا المجموع المؤلف من الـذات والعوارض نسمِّيـه بالنـظام الجزئي في المـوجود الجزئي والمجموع المؤلف من جميع هذه النظامات الجـزئية التي في ظـرف الوجـود نسميه بنظام الكل.

ثم نقول إنَّ لكل مـوجود حقيقي نـظاماً حقيقيـاً خارجيـاً ذا أجزاء حقيقيـة، فذاته من حـين يظهـر في الوجـود يصحب معه شيئـاً من عوارضـه اللازمـة وغير اللازمة، ثم يرد عليه سلسلة عوارضه واحـداً بعد واحـد ولا يزال يستكمـل بها حتى يتم ذاتـه في عوارضـه تمامـاً وكمالاً ان لم يعقـه عائق، فينتهي بـه الـوجـود المختص بـه وهو حيـاتـه، فيبـطل وينعـدم ببلوغـه أجله، فهـو بحسب التمثيـل كالشمس عند الحس تطلع من أُفقٍ ثُمَّ تحاذي نقطة بعد نقطة وتجري حتى تغرب في أُفق آخر.

وجملة الأمـر في هذه النـظامات أن لحـوق العوارض بـالذات بـاقتضاء مـا من الذات لها، بمعنى أنَّ الذات لو وضع وحده من غير مانـع تبعه عـوارضه بـارتباط معها في الذات، وهذه كلها أصول كليَّة عامة بديهية أو قريبة من البداهة.

ثم إن هذا الاقتضاء من الذات لعوارضـه مقرونـة في الإنسان بـالعلم، فهذا النوع يميز الملائم عن غير الملائم بالعلم والادراك ثم يتحرك وينحو نحو الملائم، ويهرب عن المنافر المنافي، وبعض الأنـواع الأُخَر من الحيـوان أيضاً، حـاله حـال

الإنسان، ولسنا نعلم هلْ حالُ كلٍّ نوع من الموجودات الجسمانية حالُ الإنسان لعدم وفاء الحس والتجارب، وإنْ قام بعض البراهين في العلم الإلهي على أنَّ العلم سار في جميع الموجودات.

وبالجملة حيث كان تميز الملائم عن غيره بالعلم والذات مقتض للملائم، ومتأبّ عن غير الملائم، والحركة إلى الملائم عن إرادة وعلم، والحركة عن غير الملائم عن إرادة وعلم، تحقق هناك بالضرورة بالنسبة إلى الملائم صورةٌ علميةٌ ذهنية مخصوصة. وبالنسبة إلى غير الملائم صورةٌ أخرى مخصوصة، وهما صورة اقتضاء الذات لأمر وصورة تأبّاها عن أمر، فللاقتضاء صورة وهي وجوب الفعل في قولنا يجب أن يفعل كذا انتزعتها النفس عن نسبة الضرورة في القضايا الحقيقية الخارجية، ولعدم الاقتضاء صورة وهي حرمة الفعل أو وجوب عدمها في قولنا يحرم أو يجب أن لا يفعل كذا، انتزعتها النفس عن نسبة الامتناع في القضايا الحقيقية الخارجية، وللمقتضى بالبناء للمفعول صورة، ولعدم المقتضى المتأبى عنه بالبناء للمفعول صورة أخرى والظاهر أنَّ النفس ينتزعها فيهما من نسبة بعض أجزاء الشخص بالنسبة إليه، أو شخصه بالنسبة إلى شخصه. ومن نسبة عدم شخصه أو عدم بعض أجزاء شخصه بالنسبة إلى شخصه، وهذا هو الذي يوجب الحركة إليه أو الهرب منه.

وهذا المقدار من الاعتبار كالمادة الأولى بالنسبة إلى الاعتبارات التالية قاطبة، ويسري هذا الحكم ويتكثر أقسام الاعتبار ويختلف بتكثر حوائج الإنسان واستقباله النواقص التي تصادف ذاته، ويمكنك التحقق بما ذكرنا واختبار الحال في ذلك بالتدبر في حال الطفل الإنساني وتدرجه في الحياة، وكذلك باختبار حال بعض الحيوان مما في نوعه الإجتماع محدود ساذج، والتميز في أوهامه سهل يسير.

ثم إن الإنسان الفرد لا يتم له وحده جميع كمالاته الملائمة لذاته، لكونه في جميع جهات ذاته محتاجاً إلى التكامل. وتفنن احتياجاته الحيوية مع احتفاف كل واحد من كمالاته بما لا يحصى من الآفات، ولذلك فهو بالفطرة مضطر إلى الاجتماع والتعاون والتمدن مع أمثاله والحياة فيهم، حتى يقوم كل فرد بجهة أو

جهات معدودة من خصوصيات كمالاتهم بما يسعه طاقته ويعيشوا بنحو الاشتراك وهٰهنا وقعت الحاجة إلى التفهيم والتفهم، فابتدأ ذلك بالإشارة، ثم كَمل بالصوت، ثم تُمِّمَ ذلك بتمييز الأصوات المختلفة للمقاصد المختلفة.

والدليل عليه ما نشاهده في الحيوانات العُجم، فإن فيها دلالة على المقاصد بالأصوات وتعدادها كثرة وقلة بالنسبة إلى اجتماعاتها كصوت الزّاغ، وصوت الفساد، وصوت التربية وصوت الإشفاق وغير ذلك مما بينها، وهذا الأمر يكتمل ثم يكتمل حتى يصير اللفظ وجوداً لفظياً للمعنى لا يُلتفت عند استماعه إلاّ إلى المعنى، ويسري الحسن والقبح من أحدهما إلى الآخر.

ثم ان اشتراك المساعي في الحياة واختصاص كل فرد بما يُهيِّئُهُ يوجب اعتبار الملك في المختصات، وأصله الاختصاص، وكذا اعتبار الزوجية، واحتياج الكل إلى ما في أيدي آخرين، يوجب اعتبار التبديل في الملك والمعاملات المتنوعة من البيع والشراء والإجارة وغيرها، وحفظ النسبة بين الأشياء القابلة للتبديل من حيث القلة والكثرة والابتذال والعزة، وغير ذلك يوجب اعتبار الفلوس والدراهم، وهو شيء يحتفظ به نسبة الأشياء القابلة للتبديل بعضها مع بعض.

ثم ان هذه التقلبات غير المحصورة لا تخلو من وقائع جزئية معتدلة وأخرى يقع فيها الظلم والتعدي والإجحاف؛ فالأفراد في أخلاقها مختلفة والطبائع إلى التعدي وتخصيص المنافع بنفسها ومزاحمة غيرها مجبولة. وحينذاك وقع الاحتياج إلى قوانين يحفظ بها الاعتدال في الاجتماع، وإلى من يحفظ هذه القوانين، وإلى من يعتضد به، فينشعب إذ ذاك اعتبار الرئاسة والرئيس والمرؤوس والقانون وغير ذلك.

ويتفرع على ذلك اعتبارات أخَر، ولا يزال يتبع بعضها بعضاً حتى ينتهي إلى غايات بعيدة طوينا الكلام عن شرحها لعدم وفاء المقام بذلك.

وبالجملة فهذه الاعتبارات لا تزال تتكثر بكثرة مسيس الحاجة حتى تنفذ

وتسري في جميع جزئيات الأمور المربوطة بالإنسان الاجتماعي وكلياتها، ويتلوّن الجميع بهذه الألوان الوهمية، وتتلبس بهذه الملابس الخيالية، بحيث أن الإنسان الذي يتقلب بينها بواسطة الإدراك، ويقصدها ويتركها، ويحبها، ويكرهها، ويرغب فيها، وينفر عنها، ويرجوها، ويخاف منها، ويشتاقها، ويعافها، ويلتذّ بها، ويتألم منها، ويختارها، ويتركها بالحسن والقبح، والوجوب والحرمة، والنفع والضر، والخير والشر، بواسطة العلم والإرادة، لا يشهد منها إلّا هذه المعاني السرابية، ولا يحس منها إلّا بهذه الوجوه. فحياة الإنسان، وهي حياة اجتماعية مربوطة بهذه الأسباب، محدودة بهذه الجهات، متقلبة في هذه العرصات، لو وقعت حيناً ما في خارجها كالحيتان خارج المياه، بطلت وخمدت.

وأنت إذا أجلت النظر وأدرت الفكر في بعض الموجودات ونظامها الطبيعي كالمركبات النباتية مثلاً، رأيت استمرار حياتها في إدامة بقائها يدور على التغذية والنمو، وتوليد المثل، ورأيت ذاتها يفعل هذه الأفعال باقتضاء من نفسه من غير استعانة بالخارج عنه ويتمم ويستكمل هذه الجهات بأفعال وانفعالات ذاتية طبيعية بجذب ودفع، ويديم بها أمره حتى ينتهي إلى البطلان ونظامه نظام طبيعي غير متوسط غيره في جريانه. وإذا رجعت إلى الإنسان وجدت هذا النظام الطبيعي منه محفوفاً بمعان ليس لها وجود في الخارج، وهمية باطلة لا يحس الإنسان إلّا بها ولا يماسّ الأمور الطبيعية إلّا من وراء حجابها، فالإنسان لا يريد ولا يروم في دائرة حياته إلّا إياها، ولا ينسج إلّا بمنوالها، لكن الواقع من الأمر حين ما يقع هو الأمور الحقيقية الخارجية.

هذا حال الإنسان في نشأة المادة والطبيعة من التعلق التام بمعان وهمية سرابية هي المتوسطة بين ذاته الخالية عن الكمالات وبين الكمالات الطارئة اللاحقة بذاته.

الفصل الثاني
حياة الإنسان ظرف نفسه

قال الله سبحانه:

﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[1].

فأخبر سبحانه أنه بعد إتمام ذات كل شيء هداه إلى كماله المختص به هداية يتفرع على ذاته، وهو اقتضاؤه الذاتي لكمالاته واياه يفصل سبحانه بقوله:

﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾[2].

فهو سبحانه بعد خلق الشيء وتسويته، قدر هناك تقديراً وذلك بتفصيل خصوصيات وجوده، كما قال:

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾[3].

واتبع هذا التقدير والتفصيل بهدايته إلى الخصوصيات التي قدرها له، وذلك بإفاضة الاقتضاء الذاتي منه لجميع ما يلزمه في وجوده، ويتم به ذاته من كمالاته، وهذا هو النظام الحقيقي الذي في كل واحد، وفي المجموع من الموجودات، ومنها الإنسان الذي هو أحدها.

ثم ذكر سبحانه الإنسان، فقال:

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾[4].

---

(١) سورة طه الآية: ٥٠.
(٢) سورة الأعلى الآية: ٣.
(٣) سورة الإسراء الآية: ١٢.
(٤) سورة التين الآية: ٦.

فأخبر أنه بعد تمامية خلقه مردود، إلى أسفل سافلين، واستثناء المؤمنين الصالحين حيث أنه معقب بقوله:

﴿فلهم أجر غير ممنون﴾.

والأجر بظاهره غير متحقق في الدنيا بعد، يدل على إنقطاع الاستثناء وأنهم مرفوعون بعد الرد، وقد قال سبحانه:

﴿من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم﴾[3].

قال سبحانه:

﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هونه﴾[4].

فحكم الرد شامل لنوع الإنسان لا يشذ عنه شاذ منهم، وقد قال سبحانه أيضاً:

﴿قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[5].

وعقبه تفسيراً بقوله:

﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾[6].

---

(١) سورة فاطر الآية: ١٠.
(٢) سورة مريم الآية: ٧٢.
(٣) سورة المجادلة الآية: ١١.
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٧٦.
(٥) سورة البقرة الآية: ٣٦.
(٦) سورة الأعراف الآية: ٢٥.

وقال:

﴿إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾[1].

فبين ان الذي ردّ إليه الإنسان هو الحياة الدنيا، وهو أسفل السافلين، ثم وصف الحياة الدنيا، فقال سبحانه:

﴿انما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾[2].

واللعب هو الفعل الذي لا غاية له إلا الخيال، واللهو هو ما يشغلك بنفسه عن غيره، فأشار إلى أن هذه الحياة، وهي تعلق النفس بالبدن وتوسيطه إياه في طريق كمالاته، شاغلة له بنفسه عن غيره، وذلك لأن ذلك يوجب أن يتوهم الروح أنها عينُ البدن لا غير، وحينئذ ينقطع عن غير عالم الأجسام، وينسى جميع ما كان عليه من الجمال والجلال والبهاء، والسناء والنور، والحبور والسرور، قبل نشأة البدَن المادية، ولا يتذكر ما خلفه من مقامات القرب ومراتب الزلفى والرفقة الطاهرين، وفضاء الأنس والقدس، فيتقلب في أمد حياته اللعب، لا يستقبل شيئاً ولا يواجهه شيءٌ من محبوب أو محذور، إلّا لغاية خيالية وأمنية وهمية، إذا بلغها لم يجد شيئاً موجوداً. قال سبحانه:

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباً منثوراً﴾[3].

والعمل ما يعمله الإنسان من شيء، وقال سبحانه:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾[4].

فبيَّن أنّ أعمالهم وغاياتهم منها، كالسراب بالقاع يقصده الظمآن، فلما بلغه لم يجد ما قصده، ووجد ما لم يقصده، وينكشف حينها أن ما قصده كان غير مقصوده.

---

(١) سورة غافر الآية: ٣٩.
(٢) سورة محمد الآية: ٣٦.
(٣) سورة الفرقان الآية: ٢٣.
(٤) سورة النور الآية: ٣٩.

﴿والله غالب على أمره﴾[1].

وهو الذي يشير إليه سبحانه بقوله:

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جزراً﴾[2].

فإن الزينة هي الشيء الجميل المحبوب بنفسه وبذاته، يصحبه شيء آخر، ليكسب منه الحسن، أي يقع في القلب مع وقوع الزينة، فيجلب الرغبة فتكون هي المقصودة والمتزين بها هو الواقع، فجعل ما على الأرض زينة لها ليقصدها القاصدون ويبلغوا الأرض بقصدهم، وهي غير مقصودة. وقال سبحانه:

﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً﴾[3] (الآية).

فبَيَّن أنها مؤلفةٌ من أمورٍ خيالية، تحتها أمور حقيقية. فالإنسان بعد كمال خلقته يبدأ بتكميل جهات الحياة الدنيا بتحصيل مقصد بعد آخر، وهو يريد تكميل ما يظنه كمالاً من اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، وليستْ إلاَّ أموراً وهميةً، فإذا تممها وكملها بدا له بطلانه وفناؤه عند موته، ووداعه للحياة الدنيا.

ومن الممكن أنْ يكون قوله سبحانه في ذيل الآية:

﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾[4] (الآية).

معطوفاً على قوله في صدر الآية ﴿لعب﴾ الخ. فيكون خبراً بعد خبر، لقوله: ﴿إنما الحياة﴾ الخ. ويؤيد ذلك بعض التأييد الآية التالية لهذه الآية[5].

---

(١) سورة يوسف الآية: ٢١.

(٢) سورة الكهف الآية: ٨.

(٣) سورة الحديد الآية: ٢٠.

(٤) سورة الحديد الآية: ٢٠.

(٥) وقد نقل عن شيخنا البهائي رضوان الله عليه في معنى الآية أن هذه الأمور مترتبة بحسب مدارج عمر الإنسان، فهو يشتغل أوَّلاً: باللعب وذلك في أوان الصبا، ثم باللهو وهو في أوان البلوغ، ثم بالزينة وهو عند كمال الشباب، ثم بالتفاخر وهو عند منتصف العمر، ثم بالتكاثر في الأموال والأولاد، وهو في أوان الشيخوخة، فهي =

فيتبين بذلك أن الحياة الدنيا بجهاتها المقصودة من اللعب واللهو والزينة وغير ذلك، أمر موهوم وسراب خيالي، وهي بعينها في الحقيقة، وباطن الأمر، عذاب ومغفرة ورضوان، يظهر ذلك بظهور أنَّ جهات الحياة الدنيوية كانت باطلة موهومة كالحطام للنبات، وهو قوله سبحانه:

﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾(١).

فالآيتان كما ترى في الموت، وما ينفصل الإنسان عن حياته الدنيا، فيقول سبحانه فيها إن الإنسان سيقبل راجعاً إليه سبحانه فرداً كما خلق أول مرة، ويترك الأعضاء والقوى والأسباب التي كان يعتقدها لنفسه أركاناً يعتمد عليها، وأعضاداً يتقوى بها، وأسباباً يتوصل بها، ويطمئن إليها، وسيتقطع ما بين الإنسان وبينها، أي الروابط التي كان الإنسان يسكن إليها، ويباهي بها، من اعتباراته الوهمِيَّة. وحينئذ ذاك ضلال الكل، وزوال الجميع، وفقدانه ومشاهدته عياناً إنه كان مغروراً بذلك كله، وقد قال سبحانه:

﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾(٢).

وقال سبحانه:

﴿إنما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار﴾(٣).

وقال سبحانه:

﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾(٤).

= مقسومة على مدارج عُمر الإنسان منه.

(١) سورة الأنعام الآيتان: ٩٣ و ٩٤.

(٢) سورة لقمان الآية: ٣٣.

(٣) سورة غافر الآية: ٣٩.

(٤) سورة الحديد الآية: ٢٠.

والمتاع، ما يتمتع وينتفع به لغيره، في الحياة الدنيا، إنما يتوصل به لغرور الإنسان بها ليلهو بها عن غيرها، وهي كماله الأقصى في مبدئه ومعاده، وقال سبحانه:

﴿انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس﴾[1].

والأخبار في المعاني السابقة كثيرة جداً، نقتصر منها بجملة من كلام أمير المؤمنين علي (ع)، قال (ع) في بعض خطبه على ما في النهج:

«عباد الله ان الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين».

إلى أن قال (ع):

فمن شغل نفسه بغير نفسه تحير في الظلمات وارتبك في الهلكات ومدت به شياطينه في طغيانه وزينت له سيء أعماله، فالجنة غاية السابقين والنار غاية المفرطين، إلى أنْ قال (ع):

«وكأنَّ الصيحة قد أتتكم والساعة قد غشيتكم وبرزتم لفصل القضاء، قد زاحت عنكم الأباطيل واضمحلت عنكم العلل واستحقت بكم الحقائق وصدرت بكم الأمور مصادرها، فاتعظوا بالعبر واعتبروا بالغير، وانتفعوا بالنذر»[2].

وقوله (ع):

«فمن شغل». الخ. اشارة إلى قوله تعالى:

﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[3].

---

(١) سورة يونس الآية: ٢٣.

(٢) نهج البلاغة الجزء ٢ ص ٦٠٦.

(٣) سورة المائدة الآية: ١٠٥.

وقوله تعالى:

﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشاء الله يضلله ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم﴾[1].

وقوله:

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾[2]. (الآيات).

فالإنسان لا حياة له في غير ظرف نفسه، ولا معاش له دون وعائه وجوّه، فإذا نسي نفسه ووقع في غيرها وقع في الضلال البحت والبوار، وبطلت أعمال قواه فلا يعمل منه سمع، ولا لسان، ولا بصر، فهو في الظلمات ليس بخارج منها، وصار كل ما قصده سراباً، وكل ما صنعه بائراً هالكاً، فإذا برز إلى اليوم الحق، برز صفر اليد خفيف العمل، وقد زاحت عنه أباطيله واستحقت حقائقه، والله ولي الأمر كله.

والكلام ذو شجون وإيثار الاختصار مانع عن الأطناب والتعرض بأزيد من التلويح والإشارة على ما هو الدأب في هذه الرسالة وأخواتها من الرسائل السابقة فالحق سبحانه خيرُ دليل وهو الهادي إلى سواء السبيل[3].

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٣٩.

(٢) سورة الزخرف الآية: ٣٧.

(٣) يذكر المؤلف أنّ الانتهاء من كتابة هذه الرسالة كان في رابع الربيع الأول من سنة ١٣٦١ هـ. في قرية شاد أباد من أعمال تبريز.

الرِّسَالَةُ الثَّالِثَةُ

الإنسَانُ بَعْدَ الدُّنيا

رسالة الانسان بعد الدنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أوليائه المقربين سيما محمد وآله الطاهرين.

هذه رسالة في المعاد نشرح فيها بعون الله سبحانه، حال الانسان بعد حياته الدنيا على ما يقوم عليه البرهان، ويستخرج من الكتاب، ويكشف عنه السنة. غير أنا آثرنا فيها الاختصار والاقتصار على كليات المعاني، فان المسلك الذي نستعمله من تفسير الآية بالآية، والرواية بالرواية، بعيد الغور، منيع الحريم، وسيع المنطقة، لا يتيسر استيفاء الحظ منه في رسالة واحدة، يقاس فيها النظير بالنظير، والشبيه بالشبيه، والاطراف بالنسب، ويؤخذ بها الجار بالجار، وستقف إن شاء الله العزيز على صحة قولنا هذا.

ومنَ الإنصاف أنْ نعترف أنَّ سلفنا من المفسرين وشراح الأخبار اهملوا هذا المسلك في استنباط المعاني واستخراج المقاصد، فلم يورثونا فيه ولا يسيرا من خطير، فالهاجم إلى هذه الأهداف والغايات على صعوبة منالها ودقة مسلكها، كساع إلى الهيجاء بغير سلاح والله المستعان.

الفصل الأول
في الموت والأجل

قال الله سبحانه:

﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾[1].

فبيَّن أنَّ كل موجود من السماء والأرض وما بينهما وجوده محدود بأجل، سماه سبحانه، أي قدره وعينه، لا يتعدَّى وجود عن أجله كما قال سبحانه:

﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾[3].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وأجل الشيء هو الوقت الذي ينتهي إليه، فيستقر فيه؛ ومنه أجل الدين وتسميته، وبالجملة هو الظرف الذي ينتهي إليه الشيء، ولذلك عبَّر عنه باليوم في قوله سبحانه:

---

(١) سورة الحجر الآية ٨٥. والآية كما ترى مثل نظائرها ساكتة عن ضرب الأجل لما وراء السموات والأرض، وما بينهما مما هو خارج عنها، وليس في كلامه سبحانه ما يدل على ابتداء خلق هذا النوع إلَّا على فنائه وزواله، بل ربما يستفاد العكس من قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ وقوله: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ بل نفس الآية أعني قوله: ﴿ما خلقنا السموات﴾ الخ دالة على أن الحق والأجل المسمى خارجان عن هذا الحكم، وهما الواسطتان منه.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٣٤.

(٣) سورة المؤمنون الآية: ٤٣.

﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾[1].

ثم إنه قال سبحانه:

﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾[2].

فأخبر بأنّ الأجل المسمى عنده، وقد قال سبحانه:

﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[3].

فأخبر بأن ما هو موجود عنده حاضر لديه لا يتطرقه النفاد، ولا يلحقه تغير، ولا يعرضه كون ولا فساد، فلا يعتوره الزمان وطوارق الحدثان، فالأجل المسمى ظرف محفوظ، ثابت يثبت فيه مظروفه من غير تغير ولا نفاد، وقال سبحانه:

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس﴾[4].

فأخبر سبحانه بالأجل الذي لزينة الأرض، وأنه يتحقق بالأمر الالهي وكذلك الحياة الدنيا، فهناك أمر الهي يتحقق به الأجل الدنيوي، فالأجل أجلان أو أجل واحد ذو وجهين: أجل زماني دنيوي، وأمرٌ إلهي كما يومي إليه قوله سبحانه:

﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾[5].

فالأجل المسمى من عالم الأمر، وهو عند سبحانه، فلا حاجب هناك أصلاً كما يفيده لفظ (عند) و (اياه) يفيد قوله سبحانه:

﴿من كان يرجو لقاء الله، فإن أجل الله لآت﴾[6].

---

(١) سورة سبأ الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام الآية: ٢.
(٣) سورة النحل الآية: ٩٦.
(٤) سورة يونس الآية: ٢٤.
(٥) سورة الأنعام الآية: ٢.
(٦) سورة العنكبوت الآية: ٥.

ولذلك أيضاً عبر عنه بالرجوع إلى الله، والمصير إليه في آيات كثيرة.

ثم ان هذا الرجوع وهو الخروج عن نشأة الدنيا، والورود في نشأة أخرى، هو الموت الذي وصفه سبحانه لا ما يتراءى لظاهر أعيننا من بطلان الحس، والحركة، وزوال الحياة، وبالجملة فناء الشيء، قال سبحانه:

﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾[1].

فوصفه بالحق فلا يكونن باطلاً وعدماً، وقال سبحانه:

﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾[2].

إلى أن قال:

﴿والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق﴾.

فيوم الموت يوم الرجوع إلى الله والسوق إليه.

ويدل على ما مر ما رواه الصدوق وغيره عن النبي ﷺ؛ «ما خلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء وإنما تنتقلون من دار إلى دار».

وفي العلل عن الصادق (ع) في حديث: فهكذا الإنسان خلق من شأن الدنيا وشأن الآخرة، فإذا جمع الله بينهما صارت حياته في الأرض، لأنه نزل من شأن السماء إلى الدنيا، فإذا فرق الله بينهما صارت تلك الفرقة الموت، ترد شأن الأخرى إلى السماء. فالحياة في الأرض والموت في السماء، وذلك أنه يفرق بين الروح والجسد، فردت الروح والنور إلى القدس الأولى وترك الجسد لأنه من شأن الدنيا الحديث.

وفي المعاني عن الحسن بن علي، قال: دخل علي بن محمد، على مريض من أصحابه وهو يبكي ويجزّع من الموت فقال له: يا عبد الله تخاف من الموت لأنك لا تعرفه، أرأيتك إذا اتسخت وتقذّرت وتأذيت من كثرة القذر والوسخ عليك

(١) سورة ق الآية: ١٩.　　(٢) سورة القيامة الآية: ٢٦.

وأصابك قروح وجرب، وعلمتَ أن الغسل في حمام يزيل ذلك كله أما تـريد أن تدخله، فتغسل ذلك عنك أو تكره أن تدخله فيبقى ذلـك عليك، قـال: بلى يـا ابن رسول الله، قال (ع): فذلك الموت هو ذلك الحمام وهو آخر ما يبقى عليك من تمحيص ذنوبك وتنفيتك من سيئاتـك، فإذا أنت وردت عليـه وجاورتـه فقد نجـوت من كل غمٍّ وهمٍّ وأذى، ووصلت إلى كـل سـرور وفـرح، فسكن ذلـك الرجل ونشط واستسلم وغمض عين نفسه ومضى لسبيله.

وفي المعاني عن الجواد (ع) عن آبائه، في حديث قال: وقال علي ابن الحسين (ع): لما اشتد الأمر بالحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، نظر إليـه من كان معـه فـإذا هو بخـلافهم، لأنهم كلما اشتد الأمـر تغيرت ألـوانهم وارتعدت فـرائصهم ووجلت قلوبهم، وكـان الحسـين (ع) وبعض من معـه من خصـائصـه، تشـرق ألوانهم وتهدأ جوارحهم وتسكن نفوسهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا لا يبالي بالموت. فقال لهم الحسين (ع): صبـر ابني الكرم فـما الموت إلا قنـطرة يعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فـأيُّكم يكرهْ أن يتنقـل من سجن إلى قصر ومـا هـو لأعـدائكم، إلاّ كَمَنْ ينتقـل من قصر إلى سجن وعـذاب، إنّ أبي حـدثني عن رسـول الله ﷺ: ان الـدنيـا سجنُ المؤمن وجنـة الكـافر، والمـوت جسر هؤلاء إلى جناتهم، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم مـا كـذب ولا كذبت.

وقال محمد بن علي (ع) قيل لعلي بن الحسين (ع): ما الموت؟ قـال للمؤمن: كنزع ثياب وسخـة قملة، وفك قيـود وأغلال ثقيلة، والاستبـدال بأفخـر الثياب وأطيبها روائح وأوطى المراكب، وآنس المنازل. وللكافر: كخلع ثيـاب فاخـرة، والنقـل من منازل أنيسـة والاستبدال بـأوسخ الثيـاب وأخشنهـا، أوحش المنـازل وأعظم العذاب.

وقيل لمحمد بن علي (ع): ما الموت؟ قال: هو النوم الذي يأتيكم كـل ليلة، إلا أنه طويـل مدتـه لا ينتبه منـه إلا يوم القيـامة فمن رأى في نـومه من أصنـاف

الفرح، ما لا يقادر قدره، ومن أصناف الأهوال ما لا يقادر قدره، فكيف حال فرح في النوم ووجل فيه، هذا هو الموت فاستعدوا له.

أقول: وعده (ع) الموت من نوع النوم مستفادٌ من قوله سبحانه:

﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾(1).

حيث عدَّ الأمرين جميعاً توفياً، ثم عبر بالإمساك دون القبض.

وكذلك عده (ع) كما في سائر الأحاديث، (الموت)، وصفاً للروح وأنه يترك به الجسد ويمضي لسبيله، هو المستفاد من قوله سبحانه:

﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾(2).

حيث نسب التوفي وهو أخذ الحق من المطلوب بتمامه إلى الأنفس، كما نسبه في قوله سبحانه:

﴿وهو الذي يتوفٰكم﴾(3).

إلى لفظ «كم»، وهو الأمر الذي يعبِّر عنه الإنسان «بأنا» وقد شرحناه في رسالة الإنسان قبل الدنيا.

وبالجملة فالوارد في النشأة الأخرى من الإنسان، نفسه وروحه، وعليه يدل قوله سبحانه:

﴿يا أيها الانسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾(4).

والكدح هو السعي إلى الشيء، والإنسان كادح إلى ربه لأنه لم يزل سائراً إلى الله سبحانه منذ خلقه وقدره، ولذلك عبر عن إقامته في هذه الدار باللبث في آيات كثيرة، قال سبحانه:

---

(1) سورة الزمر الآية: ٤٢.

(2) سورة الزمر الآية: ٤٢.

(3) سورة الأنعام الآية: ٦٠.

(4) سورة الانشقاق الآية: ٦.

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾[1].

ثم إنه سبحانه قال:

﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾[2].

فنسب التوفي إلى نفسه. وقال سبحانه:

﴿قل يتوفكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾[3].

فنسبه إلى ملك الموت، وقال سبحانه:

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾[4].

فنسبه إلى الملائكة الرسل، ومرجع الجميع واحد، لما عرفت في محله أن الأفعال كلها لله، وهي مع ذلك ذات مراتب تقوم بكل مرتبة من مراتبها طائفة من الموجودات على حسب مراتبها في الوجود. .

والأخبار أيضاً شاهدة بذلك، ففي التوحيد عن الصادق قال (ع): قيل لملك الموت كيف تقبض الأرواحَ، وبعضُها في المغرب، وبعضها في المشرق في ساعةٍ واحدة؟ فقال: أدعوها فتجيبني. قال: وقال ملك الموت: إن الدنيا بين يديَّ كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء، والدنيا عندي كالدرهم في كفِّ أحدكُمْ يقلبها كيف شاء.

وفي الفقيه عن الصادق (ع) أنه سئل عن قول الله عز وجل:

﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾.

وعن قول الله:

﴿قل يتوفكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾.

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ١١٢.

(٢) سورة الزمر الآية: ٤٢.

(٣) سورة السجدة الآية: ١١.

(٤) سورة الأنعام الآية: ٦١.

وعن قوله الله :

﴿الذين تتوفهم الملائكة طيبين والذين تتوفهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾[1].

وعن قوله الله :

﴿توفته رسلنا﴾.

وعن قوله الله :

﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾.

وقد يموت في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، فكيف هذا؟ فقال ان الله تبارك وتعالى، جعل لملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة، له أعوان من الأنس يبعثهم في حوائجهم، فتوفاهم الملائكة ويتوفاهم ملك الموت مع ما يقبض هو ويتوفاه الله عز وجل من ملك الموت.

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين (ع) مثله، وزاد في آخره: وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس، لأنَّ منهم القوي والضعيف، ولأن منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله إلا من يُسَهِّل الله له حمله، وأعانه عليه من خاصة أوليائه، وإنما يكفيك أنْ تعلم أن الله المحيي المميت، وأنه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم. (الحديث).

أقول قوله (ع) وغيرهم، ظاهره أنه سبحانه ربما توفاها على يدي غير الملائكة من خلقه، فهو معنى غريب ويمكن أن يراد به بعض المقربين من الأولياء العالين درجة من الملائكة المتمكنين في مقام الأسماء كالقابض والمميت، ويمكن أن يراد به ما يتوفاه سبحانه بنفسه من غير توسط الملائكة وإن كان مرجع المَعْنَيَيْنِ واحداً.

---

(١) سورة النحل الآية: ٢٨.

فقد روى في الكافي عن الباقر (ع) كان علي بن الحسينْ (ع) يقول: إنّه يسخى نفسي في سرعة الموت والقتل فيها قول الله تعالى:

﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾[1].

وهو ذهاب العلماء، والظاهر على ما ذكره بعض العلماء أنه (ع) أخذ الأطراف، جمع طرف، بتسكين الراء بمعنى العلماء والأشراف، كما ذكره في الغريبين.

وبالجملة فكما أن حال الأنفس في القرب من الله سبحانه على مراتب حقيقية، فكذلك حال المتوفى؛ فمن نفس يتوفاها الله بنفسه تعالى، لا تحس ولا تشعر بغيره سبحانه. ومن نفس يتوفاها ملك الموت لا تشعر بمن دونه كما يشير إليه الصادق (ع) بقوله، في الرواية السابقة، مع ما يقبض هواه. ومن نفس تتوفاها الملائكة عملة ملك الموت، والمأخوذ «المتوفى» على كل حال هو النفس دون البدن كما مر، وهو سبحانه أقرب إلى النفس من نفسه وملائكته من عالم الأمر، وبأمره يعملون والنفس أيضاً من هناك ولا حجاب في الأمر بشيء من الأزمنة والأمكنة، فالتوفي من باطن النفس وداخلها، دون الخارج عنها وعن البدن، وقد قال سبحانه:

﴿إذ فرغوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾[3].

ثم إذا كانت النفس المتوفاة، وهي الإنسان، حقيقة لا تبطل بالموت وقد

---

(١) سورة الرعد الآية: ٤١.

(٢) سورة سبأ الآية: ٥١.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٩٤.

سكنت في الدنيا وسكن إليها، وعاش في دار الغرور واستأنست بها، فأول ما ينكشف له حين الموت بطلان ما فيها، وانمحاء الرسوم التي عليها، وتبدل الأعمال والغايات التي فيها بالسراب، بتقطع ظواهر الأسباب قال سبحانه:

﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتهم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾.

فالإنسان إنما يختلط في هذه الدار الدنيا بقسمين من موجوداتها وشؤونها:

أحدهما: ما يزعم أنه يملكه من زينة الحياة الدنيا وزخرفها ويستعين به في آماله وأمانيه وأغراضه وغاياته.

والثاني: ما يرتبط به مما يزعمه شفيعاً لا يتمكن من بلوغ المآرب إلّا بشراكته وتأثيره من أزواج وأولاد وأقارب وأصدقاء ومعارف من أولي القوة والبأس، فأشار سبحانه إلى بطلانها بالجملة بقوله:

﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ (الآية).

وإلى زوال القسم الأول بقوله:

﴿وتركتم ما خولناكم﴾ (الآية).

وإلى زوال القسم الثاني بقوله:

﴿وما نرى معكم شفعاءكم﴾ (الآية).

وإلى سبب البطلان بقوله:

﴿لقد تقطع بينكم﴾ (الآية).

وإلى نتيجته بقوله:

﴿وضل عنكم﴾ (الآية).

وبالجملة، فيبقى ما في الدنيا في الدنيا، وتشرع من حين الموت حياة أخرى للإنسان فاقدة لجميع ما في الدنيا، ولذلك سمي الموت بالقيمة الصغرى. فعن أمير المؤمنين (ع): من مات فقد قامت قيامته.

ثم إن النفس إذا فارقت الجسد فقدت صفة الاختيار والتقوى على كلا طرفي الفعل والترك، وحينئذ يرتفع موضوع التكليف. قال سبحانه:

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ .

وعند ذلك يقع الانسان في أحد الطريقين: السعادة والشقاوة، ويحتم له إما السعادة أو الشقاء، فيتلقى إما بشرى السعادة أو وعيد الشقاوة، قال سبحانه:

﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ (الآية).

وقال سبحانه:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾[2].

وقوله: «كنتم توعدون» مشعر بكون البشارة بعد الدنيا وهي الآخرة، ومن المعلوم أن البشارة بالشيء قبل حلوله، فالبشرى بالجنة قبل دخولها، وهي إنما

---

(١) سورة النحل الآية: ٣٢.

(٢) سورة فصلت الآية: ٣٠.

تكـون بأمـر قطعي الـوقوع، فـلا تتحقق في الدنيـا حتى الموت لبقـاء الاختيـار، وامكان انتقال الانسان من أحد سبيلي السعادة والشقاوة إلى الآخر.

ومن هنا ما ترى أنه سبحانه في قوله:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[1].

حيث أثبت في حق المؤمنين أنهم مـأمـونـون من الخـوف والحـزن، وأنَّ لهم البشـرى في الحياة الـدنيا، أثبت قبـل ذلك الـولايـة في حقهم، وهي أن يكـون سبحانه هو الذي يلي أمورهم من غير دخالة اختيارهم وآنية أنفسهم في التدبـير، وعنـد ذلك تصـحُّ البشـارة لعـدم إمكـان شقـاء في حقهم مـا ولي أمـرهـم الحق سبحانه، ولذلك غير السياق في وصف تقويهم فقال:

﴿وكانوا يتقون﴾ الخ.

وكان حق ظاهر السياق أنْ يقول: «آمنوا واتقوا»، إشارة إلى أن إيمانهم هذا، مكتسب بالتقوى بعد إيمان سـابق عليه، وهـذا صفاء الإيمـان من شائبـة الشرك المعنوي بالاعتماد على غيره سبحانه. فهو في مساق قوله سبحانه:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسولـه يؤتكم كفلين من رحمته ويجعـل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم﴾[2].

وهذا هو الذي امتن سبحانه به فسماه «نعمة» فقال:

﴿الذين قال لهم النـاس إن الناس قـد جمعوا لكم فـاخشوهم فـزادهم إيمانـاً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[3].

فارجعوا الأمر إليه سبحانه وسلبوا تدبير أنفسهم واختيارها، فقال سبحانه:

﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾[4].

---

(١) سورة يونس الآية: ٦٢.

(٢) سورة الحديد الآية: ٢٨.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٧٣.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٧٤.

فنفى مس السوء عنهم بنعمة أفاضها عليهم، وليست إلّا الولاية بتوليه سبحانه أمورهم، ودفعه السوء عنهم بتدبيره، وكفايته لهم، ووكالته عنهم، ومثله قوله سبحانه:

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾(1).

فسمى ذلك نعمة، ثم ذكر سبحانه أنه سيلحق المطيعين بأوليائه المنعمين بهذه النعمة، فقال سبحانه:

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾(2).

فإن المطيع من حيث إرادته، لا إرادة له غير إرادة المطاع، فالمطاع هو القائم مقام نفس المطيع في إرادتها وأفعالها، فالمطاع وليه وكل من كان لا نفس له إلّا نفس المطاع فهو أيضاً ولي للمطيع، إذ ليس هناك إلا المطاع. ولذلك قرر سبحانه بعض أوليائه المقربين وَلِيّاً لآخرين، قال سبحانه:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾(3).

والآية منزلة في أمير المؤمنين علي (ع)، وليس المراد بالولاية في الآية هو المحبة قطعاً لمكان، إنما وكون المورد مورد بيان الواقع لمكان قوله: «وليكم الله» الخ. بخلاف قوله سبحانه:

﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾(4).

وقوله تعالى:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾(4).

---

(1) سورة إبراهيم الآية: ٢٧.
(2) سورة النساء الآية: ٦٩.
(3) سورة المائدة الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.
(4) سورة الجاثية الآية: ١٩.

وبـالجملة فعند ذلـك يتضح وجـه إلحاقـه سبحانـه المطيعـين بأوليـائهم، فهو سبحانه ولي الجميع وبعضهم، وهم الأقربون إليه، أولياء لبعض آخر ممن دونهم وجميعهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يبشرون بالجنة والرفقة الصـالحة عنـد الموت.

ويدلُّ أيضاً على هذه المعـاني أخبارٌ كثيـرة؛ ففي الكافي، عن سـدير الصيـرفي قال: قلت لأبي عبد الله (ع): جعلت فداك يا بن رسـول الله. هل يُكـره المؤمن عـلى قبض روحه؟ قـال: لا والله، إذا أتاه ملك المـوت لقبض روحه جـزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليَّ الله لا تجزع، فوالذي بعث محمـداً لأنا أبَـرُّ بك وأشْفَقُ عليك من والد رحيم، افتح عينيـك فانـظر، قال: ويَمْثُـلُ لهُ رسـول الله، وأمـيرُ المؤمنين، والحسن، والحسـين، والأئمةُ من ذريتهم، فقـال له: هـذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة رفقاؤك. فقال: فيفتح عينيـه، فينظر، فينـادي روحه منـادٍ منْ قبل ربِّ العـزة فيقول: يـا أيتهـا النفس المطمئنة إلى محمـد، وأهل بيتـه ارجعي إلى ربـك راضيـة بـالـولايـة، مـرضيـة بالثواب، فادخلي في عبـادي وادخلي جنتي. فـما من شيء أحبُّ إليه من استـلال روحِه واللحوقِ بالمنادي.

وروى العياشي في تفسيره عن عبد الرحيم الأقصر، قال أبو جعفر (ع): «إنما أحدكم حين يبلغ نفسه هٰهنا فينزل عليه ملك الموت فيقول: أما ما كنت تـرجوه فقد أُعطيته، وأما مـا كنت تخافـه فقد أمنتَ منـه، ويُفتح لـه بابٌ إلى منـزله من الجنة. ويقال له: انظر إلى مسكنك في الجنة، وانظر إلى رسول الله وعلي والحسن والحسين رفقائك، وهو قول الله؛

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

وروى المفيد في مجالسه عن الاصبغ بن نبـاتة، حـديث الحارث الهمـداني مع أمير المؤمنين (ع) وفيه قال (ع): وابشرك يا حـارث لتعرفني عنـد الممات، وعنـد الصراط، وعند الحوض، وعند المقـاسمة. قـال الحارث: ومـا المقاسمـة؟ قال:

مقاسمة النار، أقاسمها قسمة صحيحة، أقول هذا وليي فاتركيه، وهذا عدوّي فخذيه. (الحديث). وهو من مشاهير الأخبار، رواه جمع من الرواة وصدقه بعض الأئمة بعده (ع).

وفي غيبة النعماني عن أمير المؤمنين في حديث: «اما أنه لا يموت عبد يحبني فتخرج نفسه حتى يراني حيث يحب، ولا يموت عبد يبغضني فتخرج نفسه حتى يراني حيث يكره» (الحديث).

وفي الكافي عن الصادق (ع) قال ما من أحد يحضره الموت إلاّ وكل به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر، ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه. فمن كان مؤمناً لم يقدر عليه، فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، حتى يموت: (الحديث). ومعناه مستفاد من قوله سبحانه:

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين﴾[1].

وقوله سبحانه:

﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾[2].

فظاهر الآية أن قوله: «اكفر»، وقوله: «إني بريء» من جنس واحد، ووقت واحد، وليس من لسان الحال في شيء وهناك خطاب.

وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله (ع) قال: «إن الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه وعن يساره ليصده عما هو عليه فيأبى الله ذلك، وكذلك قال الله:

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٢٧.

(٢) سورة الحشر الآية: ١٦.

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

أقول، والروايات عن أئمة الهدى في هذه المعاني متظافرة متكاثرة، رواها جم غفير من الرواة، هذا كله ما يفيده الكتاب والسنة، والبرهان يفيده أيضاً، مما يدل على تجرد النفس وعدم انعدامها وبطلانها بانقطاع علاقتها عن البدن، وسيجيء اشارة إليه في الفصل التالي إن شاء الله.

الفصل الثاني
في البرزخ

قد بين في محله أن بين عالم الأجسام والجسمانيات وبين أسمائه سبحانه عالمين عالم العقل وعالم المثال.

وأن كل واحد من الموجودات يرجع بالضرورة إلى ما بدأ منه.

وأن العالم آخذاً من الجسمانيات إلى أن ينتهي إلى المبدأ الأول ومبدع الكل، مترتبة في الكمال والنقص، متطابقة في الوجود، ومعنى ذلك تنزل العالي إلى مرتبة السافل وظهوره كالمرآة تنعكس فيه صور ما يقابلها من الأضواء والألوان والمقادير، فتظهر منها على قدر ما تقبله وتطيقه وتتكيف بما في المرآة من الكيفيات تماماً ونقصاً.

وإن عالم المثال، كالبرزخ بين العقل المجرد والموجودات المادية فهو موجود مجرد عن المادة، غير مجرد عن لوازمها من المقادير والأشكال والأعراض الفعلية، وبهذه المقدمات يتبين تفصيل حال الإنسان في انتقاله من الدنيا إلى ما بعد الموت هذا.

وينبغي لك أن تتثبت في تصور معنى المادة، وأنها جوهر، شأنها قبول الآثار الجسمية وتحققها في الأجسام مصححة الانفعالات التي ترد عليها، وليست بجسم ولا محسوس، وإياك أن تتصور أنها الجسمية التي في الموجودات الجسمانية، فهذا هو الذي عزب عن جمع من علماء الظواهر فتلقوا ما ذكره المتألهون من أصحاب البرهان على غير وجهه، وحسبوا أنَّ قولنا: إنَّ البرزخ لا مادة له مثلاً، أو أن لذائذه خيالية أو هناك لذة عقلية معناها أنها وهمية سرابية

غير موجودة في الخارج إلاّ في الوهم والتصور، وذلك انحراف عن المقصود، خاطىء من جهة المعنى.

وكيف كان، فحال البرزخ ما عرفته، والكتاب والسنة يدلان على ذلك، لكن الأخبار حيث اشتملت على جُلِّ الآيات، وضعنا الكلام فيها وتعرضنا للآيات التي تتحدث عنها.

ففي تفسير النعماني، بإسناده عن أمير المؤمنين (ع) قال: وأما الرد عَلَى مَنْ أنكر الثواب والعقاب في الدنيا بعد الموت قبل القيامة: بقول الله عز وجل يوم يأتي:

﴿لا تكلم نفس إلاّ بإذنه، فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربك، إن ربك فعال لما يريد، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾[1].

يعني السموات والأرض قبل القيامة فإذا كانت القيامة بدلت السموات والأرض.

ومثل قوله تعالى:

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[2].

وهو أمر بين أمريْنِ؛ وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة.

ومثله قوله تعالى:

﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة﴾[3].

---

(١) سورة هود الآية: ١٠٨.

(٢) سورة المؤمنون الآية: ١٠٠.

(٣) سورة غافر الآية: ٤٦.

والغـدو والعشي لا يكونـان في القيامـة التي هي دار الخلود، وإنما يكـونان في الدنيا، وقال الله تعالى في أهل الجنة:

﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾[1].

والبكرة والعشي إنما يكونان من الليل والنهار في جنة الحياة قبـل يوم القيـامة، قال الله:

﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾[2].

ومثله قوله:

﴿ولا تحسبن الـذين قتلوا في سبيل الله أمـواتاً بـل أحياء عنـد ربهم يرزقـون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾[3] (الآية).

أقول قوله سبحانه:

﴿النار يعرضون عليها﴾.

أريد به نار الآخرة، وأما المعرض عليها فهو في البرزخ، ويدل على ذلك ذيل الآية وهو قول سبحانه:

﴿ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[4].

وسيأتي نظير هذا التعبير في الروايات، أنه يفتح له إلى قبره بـاب من الحميم، يدخل عليه منه اللهب والشرر، فهناك نار مثال نار، وعذاب مثال عذاب.

وقوله سبحانه:

﴿فأما الذين شقوا ففي النار﴾.

أريد به نار البرزخ، وبمـا ذكر يستصح الجمع بـين الكون في النـار والمعرض

---

(١) سورة مريم الآية: ٦٢.

(٢) سورة الإنسان الآية: ١٣.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٦٩.

(٤) سورة غافر الآية: ٤٦.

عليها، ومثله قوله سبحانه:

﴿إذ الأغـلال في أعناقهم والسـلاسـل يسحبـون في الحميم ثم في النـار يسجرون﴾[1].

فـالسَّحْب في الحميم، وهو الماء الحار مقـدمـة لـلاسجار في النـار، وهـو في القيامة؛ وهذه المعاني مرويَّة في تفسير العياشي أيضاً.

ورَوَى القمي والعياشي في تفسيريهـما، والكليني في الكافي، والمفيـد في الأمالي بأسانيـدهم عن سويـد بن غفلة، عن أمير المؤمنـين (ع)، قال: «ان ابن آدم إذا كـان في آخر يـوم من الدنيـا وأول يوم من الآخـرة، مَثُلَ لَـهُ أهلُه ومالـه وولـده وعمله، فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إني كنت عليك لحـريصاً شحيحـاً، فمالي عنـدك؟ فيقول: خـذ مني كفنك. ثم يلتفت إلى ولـده؛ فيقـول: والله إني كنت لكم لمحباً، وإني كنت عليكم لمحامياً، فماذا لي عنـدكم؟ فيقولـون: نرديـك إلى حفرتك ونواريك فيها، ثم يلتفت إلى عمله فيقول: والله إني كنت فيك لزاهداً، وانك كنت علي لثقيلاً فماذا عندك؟ فيقول أنـا قرينـك في قبرك، ويـوم حشرك، حتى أعـرض أنا وأنت عـلى ربـك، فـإن كـان لله وليـاً أتـاه أطيب النـاس ريحـاً وأحسنهم منـظراً وأزينهم رياشـاً فيقـول: أبشر بـروح من الله، وريحـان، وجنـة نعيم، قـد قدمت خـير مقدم، فيقـول: من أنت؟ فيقول: أنـا عملُك الصـالـح أرتحلُ من الدنيا إلى الجنة. وانه ليعرف غـاسله ويناشـد حامله أن يعجله، فـإذا دخـل قبره أتـاه ملكان، وهمـا فتانـا القبـر، يجـران أشعـارهمـا ويبحثـان الأرض بأنيابهما، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهمـا كالبـرق الخاطف فيقـولان له: من ربـك، ومن نبيك، ومـا دينك؟ فيقـول: الله ربي، ومحمد نبيي، والإسـلام ديني. فيقولان له: ثبتك الله فيما تحب وترضى، وهو قول الله:

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا﴾[2] (الآية).

---

(١) سورة غافر الآية: ٧٢. (٢) سورة إبراهيم الآية: ٢٧.

فيفسحان له في قبره ومد بصره، ويفتحان له باباً إلى الجنة ويقولان: نم قرير العين نوم الشاب الناعم، وهو قوله:

﴿أصحاب الجنة خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾[1].

وإذا كان لربه عدواً فإنه يأتيه أقبح خلق الله رياشاً، وأنتنه ريحاً، فيقول: له أبشر بنزل من حميم، وتصلية جحيم، وانه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يحبسه فإذا دخل قبره أتياه ممتحناً القبر فألقيا عنه أكفانه ثم قالا له: من ربك، ومن نبيك، وما دينك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان له: ما دريت ولا هديت، فيضربانه بمرزبة ضربة ما خلق الله دابةً إلا وتذعر بها، ما خلا الثقلان. ثم يفتحان له باباً إلى النار، ثم يقولان له: نم بشر حال. فهو من الضيق مثل ما فيه القنا من الزج، حتى أن دماغه يخرج من بين ظفره ولحمه ويسلط الله عليه حيات الأرض وعقاربها وهَوَامَها، فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره، وانه ليتمنى قيام الساعة مما هو فيه من الشر. (الخبر).

أقول قوله (ع)، وهو قول الله:

﴿يثبت الله﴾ الخ.

يشير إلى قوله سبحانه:

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾[2].

فقد بين سبحانه، أن من الكلمات ما هي ثابتة الأصل قارة، تفيد آثارها في جميع الأحوال، ووصفها بالطيب، وقد ذكر في موضع آخر أنها تصعد إليه

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٢٤. (٢) سورة إبراهيم الآيتان: ٢٦ و ٢٧.

ويرفعها العمل الصالح حتى تصل إلى السماء، فقال سبحانه:

﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾[1].

ثم بين الطريق إليها، فقال:

﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[2].

ثم بين سبحانه أن هذه الكلمة الطيبة الثابتة الأصل تثبت الذين آمنوا به في الحياة الدنيا وفي الآخرة. والقول يتصف بالثبات وإفادته، باعتبار الاعتقاد والنية، ففي الآخرة مورد يثبت فيه الانسان أو يضل بالقول الثابت وعدمه، وإذ ليس هناك اختيار واستواء لطرفي السعادة والشقاوة، فثباته وتثبيته إنما هو بالسؤال وهو واضح عند التدبر، وقد أخبر سبحانه أن هذا القول الثابت والشجرة الطيبة تؤتي أكلها ومنافعها كل حين بإذن ربها، فالآية تدل على وقوع الانتفاع به في جميع الأحوال، وكل المواقف؛ ففي الجميع سؤال، وفي الآية الشريفة مزايا معان أخَر.

ويمكن أن يستشم من تمسكه (ع) بالآية، أنه (ع) جعل البرزخ من تتمة الحياة الدنيا وهو كذلك بوجه.

وقوله (ع) وهو قوله: «أصحاب الجنة» الخ. يشير إلى قوله سبحانه:

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾[3].

---

(١) سورة فاطر الاية: ١٠.

(٢) سورة فاطر الآية: ١٠.

(٣) سورة الفرقان الآية: ٢٣.

والآيات في البرزخ، هي من أصرح الآيات فيه، والمقيل هو النوم للقيلولـة، ومن المعلوم أن لا نوم في جنة القيـامة، إلا أنّ البـرزخ وإنْ لم يكن فيه شيء من منامات الدنيا، لكنه بالنسبة إلى القيامة نوم بالقياس إلى اليقظة، ولذلـك وصف سبحانه الناس بالقيام للساعة.

ولذلك وصف (ع) الحـال، بأنـه يفتح للميت بـاب إلى الجنة ويقـال له: نم قرير العين، أو باب إلى النار، ويقال له: نم بشر حال. وهذا المعنى كثير الورود في الأخبار فلم يصرح خبر بوروده الجنة بل الجميع ناطقـة أنه يفتـح له بـاب إلى الجنة ويرى منزله فيها ويدخل عليه منها الروح ويقـال له: نم قـرير العـين، نم نومة العروس، وقد مر الحديث عن البـاقر (ع) حيث سُئـل: ما المـوت؟ فقال: هو النوم الذي يأتيكم كل ليلة، إلا أنه طويل مدته لا ينتبه منه إلا يوم القيامة.

فما البرزخ إلّا مثـال للقيامـة وإليه التلميـح اللطيف بقولـه (ع): كما في عـدة أخبار أخر أيضاً، «ثم يفسح له في قبره مد بصره». الخ.

فـما المثال إلا القـدر الذي يفهم من الممثـل فما بعـد مد البصر شيء، وقـولـه سبحانه:

﴿**يوم يرون الملائكة لا بشرى**﴾ (الآية).

يراد به أول يوم يرونهم، هو بقرينة قولهم:

﴿**لولا أنزل علينا الملائكة**﴾ (الآية).

وهو البرزخ وفيه البشرى واللابُشرى.

واعلم أن الـذي تُشعِرُ بـه الآية هـو: السؤال عن المؤمنـين والـظالمـين. وأمـا المستضعفون والمتوسطون فمسكوت عنهم، وهـو الذي يتحصـل من الروايـات؛ ففي الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: قال أبو عبد الله (ع): لا يسأل في القبر إلا من محضَ الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً، والآخرون يلهون عنهم.

أقول والأخبار عنهم (ع) في هذا المعنى مستفيضة متكاثرة.

وفي تفسير القمي مسنداً عن ضريس الكناسي عن أبي جعفر (ع): قال: قلت له: جعلت فداك ما حال الموحدين المقرين بنبوة محمد من المذنبين الذين يموتون وليس لهم إمام، ولا يعرفون ولايتكم، فقال: أما هؤلاء فإنهم في حفرهم لا يخرجون منها، فمن كان له عمل صالح ولم يظهر منه عداوة فإنه يخد له خد إلى الجنة التي خلقها الله بالمغرب فيدخل عليه الروح في حفرته إلى يوم القيامة، حتى يلقى الله فيحاسبه بحسناته وسيئاته، فهؤلاء الموقوفون لأمر الله. قال وكذلك يفعل بالمستضعفين والبله والأطفال وأولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم. (الخبر).

أقول: يشير (ع) بقوله:

﴿فهؤلاء موقوفون﴾ (الآية).

إلى قوله تعالى:

﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾[1].

وبالجملة فغير المستضعفين ومن يلحق بهم مسؤولون ثم منعمون أو معذبون بأعمالهم.

روى المفيد في الأمالي عن الصادق (ع): في حديث قال: فإذا قبضه الله إليه صيَّر تلك الروح إلى الجنة في صورة كصورته، فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدنيا.

وفي الكافي، عن أبي ولاد الحناط عن الصادق (ع) قال: قلت له: جعلت فداك، يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش، فقال: لا، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير، لكن في أبدان كأبدانهم.

(١) سورة التوبة الآية: ١٠٦.

وفيه أيضاً عن الصادق (ع): أن الأرواح في صفة الأجساد في شجر في الجنة تعارف وتساؤل، فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها فإنها أقبلت من هول عظيم، ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان؟ فإن قالت لهم تركته حياً ارتجوه، وإن قالت لهم قد هلك، قالوا: قد هوى. هوى (الخبر).

وهذا المعنى وارد في أخبار كثيرة، لكنها بأجمعها في المؤمنين، وأما حال الكافرين فسيأتي.

وفي الكافي عن الصادق (ع)، قال: إن المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحب، ويستر عنه ما يكره، وان الكافر ليزور أهله فيرى ما يكره، ويستر عنه ما يحب.

وفيه أيضاً عن الصادق (ع)، قال: ما من مؤمن ولا كافر إلا وهو يأتي أهله عند زوال الشمس، فإذا رأى أهله يعملون بالصالحات حمد الله على ذلك، وإذا رأى الكافر أهله يعملون بالصالحات كانت عليه حسرة.

وفيه أيضاً، عن إسحاق بن عمار، عن أبي الحسن الأول (ع)، قال: سألته عن الميت يزور أهله؟ قال: نعم. فقلت: في كم يزور؟ قال: في الجمعة وفي الشهر وفي السنة، على قدر منزلته. فقلت: في أية صورة يأتيهم؟ قال: في صورة طائر لطيف، يسقط على جدرهم ويشرف عليهم، فإذا رآهم بخير فرح، وإن رآهم بشر وحاجة، حزن واغتم.

أقول والروايات في هذه المعاني كثيرة مروية، وأما تصوره بصورة الطائر فهو تمثل.

ويمكن أن يستشعر هذا المعنى بقوله سبحانه:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾[1].

(١) سورة آل عمران الآية: ١٧١.

فالاستبشار، تلقّي البشارة والفرح بها، وقوله:

﴿**يستبشرون بنعمة**﴾ (الآية).

بيان لقوله:

﴿**ويستبشرون بالذين لم يلحقوا**﴾ (الآية).

فالآيات تفيد أنهم يستبشرون ويفرحون بما يتلقون ممن خلفهم من النعمة والفضل، وانتفاء الخوف والحزن عنهم وهو الولاية، وأنهم يعملون الصالحات، والله لا يضيع أجر المؤمنين، فيحفظ حسناتهم ويعفو عنهم سيئاتهم ويفيض عليهم بركاته، فيرون (منهم) ذلك كله.

وقريب منه قوله سبحانه:

﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾[1].

وفي الكافي، عن أبي بصير عن الصادق (ع)، في حديث سؤال الملكين قال: فإذا كان كافراً قالا: من هذا الرجل الذي خرج بين ظهرانيكم فيقول: لا أدري، فيخليان بينه وبين الشيطان (الخبر).

وروي هذا المعنى أيضاً في حديث آخر، عن بشير الدهان، ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عن الباقر (ع)، وهو قوله سبحانه:

﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين إلى أن قال تعالى حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين**﴾[2].

واعلم أن البرزخ عالم أوسع من عالم الدنيا، لكون المثال أوسع وأوسط من الجسم المادي، وقد عرفت معنى المادة، فالوارد من تفصيله بلسان الكتاب والسنّة كليات واردة على سبيل الأنموذج دون الاستيفاء.

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الزخرف الآية: ٣٨.

واعلم أن تعيين الأرض في الأخبار محلاً لجنّة البرزخ وناره، ومجيء الأموات لزيارة أهليهم، وغير ذلك، منزل على عدم انقطاع العلقة المادية بكمالها وهو كذلك كما مر.

وقد ورد في أخبار، أن جنة البرزخ في وادي السلام، وأن نار البرزخ في وادي برهوت، وأن صخرة بيت المقدس مجتمع الأرواح، وفي روايات أخر، مشاهدة الأئمة للأرواح في أمكنة مختلفة، وروي ذلك في كرامات الصالحين بما هو فوق حد الحصر، وكل ذلك أمور جائزة تكشف عن علقة (لشرافة) مكان أو زمان أو حال.

الفصل الثالث
في نفخ الصور

قال سبحانه:

﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾[2].

وقد ورد في رواية عن السجاد (ع) أن النفخات ثلاث: نفخة الفزع، ونفخة الصعقة، ونفخة الاحياء، ويمكن تنزيل ذلك إلى ما سيأتي من معنى قوله سبحانه:

﴿ما ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾[3] (الآية). والله أعلم.

فالنفخة نفختان: نفخة للإماتة ونفخة للإحياء، ولم يرد في كلامه سبحانه ما يمكن أن يفسر به معنى الصور من حيث اللفظ، وهو في اللغة: القرن، وربما كان يثقب وينفخ فيه، ولا ورد في النفخة الأولى إلّا الآيتان في سورة النمل

---

(١) سورة النمل الآية: ٨٧.

(٢) سورة الزمر الآية: ٦٨.

(٣) سورة يس الآية: ٤٩.

والزمر. إلَّا أنَّه سبحانه عبَّر عن معناه في مواضع أُخر، بالصيحة وبالزجرة، وهي الصيحة. وبالصاخة وهي الصيحة الشديدة، وبالنقر قال سبحانه:

﴿**إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدنيا محضرون**﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿**فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة**﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿**فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه**﴾[3] (الآيات).

وقال سبحانه:

﴿**فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير**﴾[4].

وقال سبحانه:

﴿**واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج**﴾[5].

فمن هنا يعلم أن مثل الصور مع نفختيه مثل ما يصنع في العساكر المعدة للحضور إلى غاية، فينفخ في الصور مرة أن اسكتوا وتهيؤا للحركة، وينفخ ثانية أن قوموا وارتحلوا واقصدوا غايتكم. فالصور موجود حامل لصيحتين: صيحة مميتة وصيحة محيية، (وهو ذان) لم نجد له تفسيراً وافياً من الكتاب، إلا أنه معبر بلفظة فيه في اثني عشر مورداً أو أزيد، فلا شك هو ذو معنى أصيل محفوظ، وقد عبّر عنه بالنداء أيضاً ولا يكون النداء إلا ذا معنى مقصود. ووصفهم سبحانه بسمع الصيحة بالحق، ولا يسمع إلا الموجود الحي، وقد أخبر بصعقتهم فليس

(١) سورة يس الآية: ٥٣.
(٢) سورة النازعات الآية: ١٤.
(٣) سورة عبس الآية: ٣٣.
(٤) سورة المدثر الآية: ٩.
(٥) سورة ق الآية: ٤٢.

إلا أن اتصافهم بالحياة والموجود عين استماعهم وسمعهم، إذ اسماعهم للصيحة المحيية لهم بعد اتصافهم بالحياة غير معقول، فليس إلاّ كلمة الهية يميتهم ويحييهم، وقد قال سبحانه:

﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[1].

فالنفختان كلمتان إلهيتان: كلمة مميتة وكلمة محيية، لكنه سبحانه لم يعبر بالموت وإنما عبر بالصعقة، ولعل ذلك لأن الموت يطلق على خروج الروح من البدن وقد شمل حكم النفخة من في السموات والأرض وفيها الملائكة والأرواح. وفي قوله سبحانه في وصف أهل الجنة:

﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾[1].

تلميح إلى ذلك.

نعم وقع في قوله سبحانه حكاية عن قول أهل النار:

﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾[2].

لو لم تكن التثنية للتكرار أو لتغليب اطلاق الموت على صعقة النفخة. ثم أنه سبحانه قال:

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾.

فأفاد شمول حكم البرزخ على الجميع، فالمراد بمن في الأرض في آيتي الفزع والصعقة ليس من على ظهر الأرض ممن هو في قيد الحياة الدنيا قبل البرزخ بل الذين قال فيهم سبحانه:

﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون

(٦) سورة البقرة الآية: ١١٧.

(١) سورة الدخان الآية: ٥٦. (٢) سورة غافر الآية: ١١.

وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة﴾[3].

إلى أن قال:

﴿وبينهما حجاب﴾.

فهؤلاء أهل الأرض وان حلوا البرزخ، وأما من في السموات فهم الملائكة وأرواح السعداء، وقد قال سبحانه:

﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾[4].

وقال:

﴿لكم ميعاد يوم﴾[5].

وقال:

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾[6] (الآية).

وقال:

---

(١) سورة الروم الآية: ٥٥.
(٢) سورة الكهف الآية: ١٩.
(٣) سورة الأعراف الآية: ٤٠.
(٤) سورة الذاريات الآية: ٢٢.
(٥) سورة سبأ الآية: ٣٠.
(٦) سورة المائدة الآية: ٩.

﴿وأجل مسمى عنده﴾[1].

وقال:

﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾[2].

وقال:

﴿يرفع الله الذين آمنوا﴾[3].

وقال:

﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾[4].

إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا فالآيات الدالة على وقوع الصيحة على أهل الأرض وفناء الدنيا وخرابها منزلة على انطواء نشأة الدنيا وانقراضها وأهلها، كقوله تعالى:

﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾[5].

وقوله سبحانه:

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[6].

وقال سبحانه:

﴿كل من عليها فان﴾[7].

فهناك صيحة ينطوي بها بساط الدنيا وينقرض أهلها، ونفخ يموت به أهل

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٢.
(٢) سورة فاطر الآية: ١٠.
(٣) سورة المجادلة الآية: ١١.
(٤) سورة المعارج الآية: ٤.
(٥) سورة يس الآية: ٥٠.
(٦) سورة العنكبوت الآية: ٥٧.
(٧) سورة الرحمن الآية: ٢٦.

البرزخ، ونفخ تقوم به القيامة ويبعث به الناس. نعم قوله سبحانه:

﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾[1].

وقوله:

﴿وأجل مسمى عنده﴾[2].

قد جمع الجميع تحت الأجل؛ فلا موت حتف أنفساً أو قتلاً ولا بصيحة ولا بنفخ صور إلّا بأجل.

وأما قوله سبحانه في آيتي النفخ إلّا من شاء الله، فالاستثناء الذي في قوله سبحانه:

﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾.

فيفسره ما بعده من الآيات. وهي:

﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾[3].

لكن الحسنة اريدت بها المطلقة لمكان الأمن، وقرينة مقابلتها بالسيئة والايعاد عليها فالمختلط عمله منهما لا يأمن الفزع لمكان السيئة، فالأمن من الفزع طيب ذاته وطيب أعماله من السيئات، وقد عد سبحانه سيئات الأعمال خبائث فقال:

﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾[4].

وقال أيضاً:

﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾[5].

---

(١) سورة الروم الآية: ٨.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٢.

(٣) سورة النمل الآية: ٩٠.

(٤) سورة الأنفال الآية: ٣٧.

(٥) سورة النور الآية: ٢٦.

وقد عد من الرجس الكفر والنفاق والشرك فقال:

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[1].

وقال:

﴿إنما المشركون نجس﴾[2].

وعد من الشرك بعض مراتب الإيمان فقال:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾[3].

فطيب الذات من الشرك أن لا يؤمن بغيره سبحانه، ولا يطمئن إلا إليه أي لا يرى له سبحانه شريكاً في وجوده وأوصافه وأفعاله وهو الولاية، وإليه يرجع معنى قوله سبحانه:

﴿الذين تتوفيهم الملائكة طيبين﴾[4].

أي من حيث الذات بالولاية:

﴿يقولون سلام عليكم﴾[5].

والسلام هو الأمن.

فقد ظهر بما وجهنا به معنى الآية أن الحسنة فيها هي الولاية وبه يشعر قوله سبحانه:

﴿قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ان الله غفور شكور﴾[6].

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٥.
(٢) سورة التوبة الآية: ٢٨.
(٣) سورة يوسف الآية: ١٠٦.
(٤) سورة النحل الآية: ٣٢.
(٥) سورة النحل الآية: ٣٢.
(٦) سورة الشورى الآية: ٢٣.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى:

﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾.

قال (ع): الحسنة والله ولاية أمير المؤمنين، والسيئة والله اتباع اعدائه.

وفي الكافي عن الصادق عن أبيه عن أمير المؤمنين (ع)، قال (ع): الحسنة معرفة الولاية وحبّنا أهل البيت، والسيئة انكار الولاية وبغضنا أهل البيت، ثم قرأ الآية. (الحديث).

وبما مر من البيان يتبين الحال في الآية الأخرى، وهي قوله سبحانه:

﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾.

فظاهر الآية أن الذين صعقوا من النفخة هم الذين قاموا لله يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهم المحضرون لقوله سبحانه:

﴿إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدنيا محضرون﴾.

وقد استثنى سبحانه من المحضرين، عباده المخلصين إذ قال:

﴿فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾.

ثم عرفهم سبحانه بقوله حكاية عن إبليس حين رجم:

﴿قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[1].

فبيّن أن لا سبيل للشيطان إليهم ولا يتحقق اغواؤه فيهم، وقد ذكر أيضاً أن اغواءه إنما هو بالوعد، حيث قال سبحانه:

﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم﴾.

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦٨.

إلى أن قال:

﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل أن الظالمين لهم عذاب أليم﴾[*].

واستنتج من ذلك كما ترى أن اللوم راجع إلى أنفسهم، وأن الذنب راجع إلى الشرك، وأنهم بمقتضى شقائهم الذاتي ظالمون. وأن الظالمين لهم عذاب أليم، فالمخلصون هم المخلصون عن الشرك بذاتهم لا يرون لغيره سبحانه وجوداً، ولا يحسون لغيره اسماً ولا رسماً، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وهذا هو مفهوم الولاية.

وبالجملة فأولياء الله سبحانه هم المستثنون من حكم الصعقة والفزع لا يموتون بالنفخة حين يموت بها مَن في السموات والأرض، وقد قال سبحانه:

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾[1].

وقال:

﴿والسموات مطويات بيمينه﴾[2].

فبيّن سبحانه طيها وبلوغها أجلها يومئذ بمن فيها، وبذلك يظهر أن المخلصين المستثنين ليسوا فيها بل مقامهم فيما وراء السموات والأرض، وهم مع ذلك في الجميع قال سبحانه:

﴿كل شيء هالك إلّا وجهه﴾[3].

فهم من الوجه، وقال سبحانه:

﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[4].

(*) سورة إبراهيم الآية: ٢٢.

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٤.

(٢) سورة الزمر الآية: ٦٧.

(٣) سورة القصص الآية: ٨٨.

(٤) سورة البقرة الآية: ١١٥.

فهم المحيطون بالعالم باحاطته سبحانه، وقد بينه سبحانه بوجه آخر بعد ما بيَّن أن أهل الجنة في السماء، وأهل النار في النار بقوله:

﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾[1].

وسيأتي كلام فيه في غير هذا المقام.

ومن هنا يظهر أنهم في فراغ وأمن من سائر الأمور الجارية والشدائد والأهوال الواقعة بين النفختين، قال سبحانه:

﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة﴾[2].

والدك هو الدق، تقول دككت الشيء إذا ضربته وكسرته حتى تسوي به الأرض. وقال تعالى:

﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾[4].

وقال سبحانه:

﴿ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[5].

وقال سبحانه:

﴿وإذا الجبال سيرت﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٦.
(٢) سورة الحاقة الآية: ١٤.
(٣) سورة النازعات الآية: ٦.
(٤) سورة المزمل الآية: ١٤.
(٥) سورة الحج الآية: ٢.
(٦) سورة التكوير الآية: ٣.

وقال:

﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾[1].

وقال:

﴿فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر﴾[2].

وقال:

﴿إذا الشمس كورت﴾[3].

وقال:

﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾.

وقال:

﴿وإذا العشار عطلت﴾.

وقال:

﴿وإذا البحار سجرت﴾.

وهذه الآيات بظاهرها قريبة الانطباق بأشراط الساعة ومقدمات القيمة وخراب الدنيا وانقراض أهلها.

واعلم أن هذا هو المصحح لعد الساعة تالية للدنيا وبعدها، كما أن الموت هو المصحح لعد البرزخ بعد الدنيا، وإلا فكما ان المثال محيط بعالم المادة وهو الدنيا، فكذلك نشأة البعث محيطة بالدنيا والبرزخ على ما يعطيه البرهان السابق واللاحق، ومع الغض عن الإحاطة أيضاً، فانطواء بساط الزمان وانقطاع الحركات بين النشأتين يوجب انقطاع النسبة الزمانية، ويبطل بذلك قبل وبعد.

---

(١) سورة القارعة الآية: ٥.

(٢) سورة القيامة الآية: ٨.

(٣) سورة التكوير الآية: ١.

واعلم أن هناك آيات أخر قريبة السياق من الآيات المذكورة آنفاً غير أنها تعطي نحواً آخر من المعنى، قال سبحانه:

﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾[1].

فإن تسيير الجبال بنقل أمكنتها وجعلها كثيباً مهيلاً وكالعهن المنفوش لا ينتهي إلى كونها سراباً، وذلك ظاهر، وقال سبحانه:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾[2].

فإن ظرف «ترى» إما حال الخطاب أو حال النفخ كما يؤيده وقوع الآية بعد آية النفخ، فتنطبق على زلزلة الساعة وهي التي بها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وهي لا تلائم قوله تعالى:

﴿تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾.

فانها تدل على أن الجبال حينئذ عى ظاهر كيفيتها الجسمانية من الأبهة والعظمة والاستقرار والتمكن، مع أنها من غير هذه الحيثية غير مستقرة بل سارية.

ومن الدليل عليه قوله:

﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾.

فإنه لا يلائم فناء الجبال واندكاكها بل يشعر بأنها في صنعها متقنة غير هينة الفساد ولا يسيرة الانفكاك، فهو سير لا ينافي استحكام أساسها واتقان وجودها في محله بل اندكاك في عين الاستحكام، فكونها سراباً يجتمع مع اتقان صنعها وبقاء هويتها ووجودها.

---

(١) سورة الانفطار الآية: ٢. (٢) سورة النمل الآية: ٨٨.

الفصل الرابع
في يوم القيامة

قال تعالى:

﴿يـوم هم بـارزون لا يخفى عـلى الله منهم شيء لمن الملك اليـوم لله الـواحـد القهار﴾[1].

وقال:

﴿يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم﴾[2].

وقال:

﴿مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير﴾[3].

وقال:

﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً﴾[4].

وقال:

﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾[5].

وقال:

﴿والأمر يومئذ لله﴾[6].

---

١) سورة غافر الآية: ١٦.
٢) سورة غافر الآية: ٣٣.
٣) سورة الشورى الآية: ٤٧.
(٤) سورة الدخان الآية: ٤١.
(٥) سورة النساء الآية: ٤٢.
(٦) سورة الانفطار الآية: ١٩.

إلى غير ذلك من الآيات. وقد اشتملت على وصف يوم القيامة بأوصاف غير مختصة به ظاهراً، فان الملك والقوة والأمر لله دائماً والموجودات بارزة له غير خافية عليه، ولا عاصم ولا ملجأ منه سبحانه دائماً، لكنه سبحانه قال:

﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾[1].

فأخبر بتقطع الأسباب وانقطاع الروابط يومئذ فأفاد أن جميع التأثيرات والارتباطات التي بين الموجودات في نظامها الموجود في عالم الأجسام والجسمانيات وما يتلوه ستقطع وتزول فلا يؤثر شيء منها في شيء، ولا يتأثر شيء عن شيء، ولا ينتفع ولا يستضر شيء بشيء ولو كان الظرف ظرفها واليوم يومها لما تخلف شيء من أحكامها ولم تزل عن مستقرها إلا ببطلان الذوات وانقلاب المهيآت، ومن المحال ذلك ولا تبديل لكلمات الله، فاذن المرفوع الزائل هو وجوداتها السرابية، وهي وجوداتها القائمة بالحق سبحانه، الثابتة به، الباطلة في أنفسها، فلا تبقى إلا نسبتها إلى الحق سبحانه، وتبطل بقية النسب وإذ هي باطلة في نفسها فهو انكشاف بطلانها لا نفسه، وظهور حقيقة الأمر وهو أن لا وجود إلا له سبحانه ولا تأثير لغيره، فلا ملك إلا له ولا مالك إلا هو وهو قوله سبحانه:

﴿ملك يوم الدين﴾[2].

وقوله:

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾[3].

وقوله:

﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾[4].

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٦٦.
(٢) سورة الفاتحة الآية: ٤.
(٣) سورة الانفطار الآية: ١٩.
(٤) سورة غافر الآية: ١٦.

ويشهد لما ذكرنا من انكشاف بطلان الوجودات السرابية والأسباب الظاهرية لا نفس بطلانها قوله تعالى:

﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم إلى أن قال: تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾[1] الآيات.

حيث ذكر بطلان الأسباب عند الموت مع أنها في محلها لم تزل وإنما هو انكشاف بطلانها.

وفي نهج البلاغة في خطبة له (ع): وأنه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان عدمت عند ذلك الآجال والأوقات وزالت السنون والساعات، فلا شيء إلا الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور.

وفي الاحتجاج عن هشام بن الحكم في خبر الزنديق فيما سأله عن الصادق (ع) إلى أن قال أيتلاشى الروح بعد خروجه من قالبه أم هو باق؟ بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور، فعند ذلك تبطل الاشياء فلا حس ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها وذلك بعد أربعمئة سنة لا خلق فيها وذلك بين النفختين.

وفي تفسير القمي عن الصادق (ع) في حديث: ثم يقول الله عز وجل لمن الملك اليوم؟ فيرد على نفسه: لله الواحد القهار.

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين (ع)، في حديث: ويقول الله لمن الملك اليوم؟ ثم تنطق أرواح أنبيائه ورسله وحججه فيقولون: لله الواحد القهار.

وفي تفسير القمي عن السجاد (ع) في حديث قال: فعند ذلك ينادي الجبار بصوت جهوري يسمع في أقطار السموات والأرضين؛ لمن الملك؟ فلا يجيبه مجيب فعند ذلك ينادي الجبار مجيباً لنفسه: لله الواحد القهار. (الحديث).

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٩٤.

أقول فانظر إلى بياناتهم (ع): وهم لسان واحد كيف جمعت بين فناء السموات والأرض وتحققها وزوال السنين والساعات وثبوتها، وعدم مجيب لندائه سبحانه غير نفسه، ووجود المجيب، ثم انظر إلى قوله سبحانه في جوابه لنداء نفسه: لله الواحد القهار، ومكان الاسمين، وتدبر في أطراف الكلام تعرف صحة ما ذكرناه.

ثم انه إذا زال الوجود المستقل عن الأشياء وعادت الثبوتات إلى تحققات وهمية سرابية وبطلت عامة التسبيبات والتشبثات، وهو قوله سبحانه:

﴿ما لكم من الله من عاصم﴾[1].

وقوله:

﴿ما لكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير﴾[2].

وقوله:

﴿ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾[3].

وقوله:

﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً﴾[4].

وقوله:

﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾[5].

وقوله:

﴿ولا تنفعها شفاعة﴾[6].

---

(١) سورة غافر الآية: ٣٣.
(٢) سورة الشورى الآية: ٤٧.
(٣) سورة الحاقة الآية: ٢٩.
(٤) سورة الدخان الآية: ٤١.
(٥) سورة إبراهيم الآية: ٣١.
(٦) سورة البقرة الآية: ١٢٣.

وقوله:

﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشـركون من دون الله قـالوا ضلوا عنـا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكـافرين﴾[1].

وقولهم: «بل لم نكن ندعوا» الخ. يقولون إنا قبل يوم القيامة لم نـدع غير الله ولم نعبد له شريكاً، فهو ظهور كـونهم في الدنيـا مغرورين بسـرابها ولعبهـا، وقد كان باطلاً بالحقيقة فقال سبحانه:

﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾.

وقريب منه قوله سبحانه:

﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاءكم فزيلنا بينهم﴾.

وقال:

﴿شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبـدون﴾[2].

وقوله:

﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبـدون﴾[3].

ومرجع الجميع إلى قوله سبحانه:

﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتمـوها أنتم وأبـاؤكم ما أنـزل الله بها من سلطان﴾[4].

وقوله:

﴿ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[5].

---

(١) سورة غافر الآية: ٧٤.

(٢) سورة يونس الآية: ٢٨.

(٣) سورة القصص الآية: ٦٣.

(٤) سورة يوسف الآية: ٤٠.

(٥) سورة الذاريات الآية: ٥٦.

ثم انه إذا بطلت الأسباب بينهم وهي المراتب المترتبة المقدرة في الوجود والتأثيرات التي بينها، ظهر حكم الباطن، ومن المعلوم أن الظاهر ظاهر بالباطن فاتحد حينئذ الغيب والشهادة، إذ كل شيء فهو في نفسه ووجوده شهادة، وإنما الغيب معنى نسبي يتحقق بفقدان شيء لشيء وغيبوبته عنه إما حسّاً أو غيره.

وبالجملة بسبب وبارتفاع الأسباب يرتفع كل حجاب يحجب شيئاً عن شيء، وهو قوله سبحانه:

﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾[1].

وقوله:

﴿وبرزوا لله جميعاً﴾[2].

وقوله:

﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[3].

ومن هذا الباب قوله:

﴿يوم تبلى السرائر﴾[4].

وقوله:

﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير﴾[5].

وقوله:

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[6].

---

(١) سورة غافر الآية: ١٦.
(٢) سورة إبراهيم الآية: ٢١.
(٣) سورة ق الآية: ٢٢.
(٤) سورة الطارق الآية: ٩.
(٥) سورة العاديات الآية: ١١.
(٦) سورة الشعراء الآية: ٨٩.

ويمكن أن ينزل على ما ههنا ما ورد من الآيات والأخبار في بروز الأرض.

وفي الكافي عن الصادق (ع) في قوله تعالى:

﴿يوم لا ينفع﴾ (الآية).

قال: القلب السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه، قال: وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط، وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا تفرغ قلوبهم للآخرة.

أقول: وقوله سبحانه:

﴿كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾[1].

لا ينافي ما ذكرنا، فانه كما سيجيء ينفي التشريف الذي يقع للمؤمنين وتصديق لما قضى به سبحانه أن الجزاء بالأعمال وان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وقد حجب هؤلاء أنفسهم في الدنيا عنه سبحانه فلا بد من ظهور مصداقه يوم القيامة، وذلك كقوله سبحانه:

﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾[2].

ثم إن بطلان الأسباب وزوال الحجب وظهور الباطن الذي هو محيط بالظاهر مقوم له قائم عليه يعطي كون الساعة محيطة بهذه النشأة وما فيها وما يتلوها، فالظاهر موجود للباطن حاضر عنده دون العكس، وهو قوله سبحانه:

﴿ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾[3].

وقوله:

﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾[4].

---

(١) سورة المطففين الآية: ١٥.

(٢) سورة القلم الآية: ٤٣.

(٣) سورة الاسراء الآية: ٥١.

(٤) سورة الملك الآية: ٢٧.

وقوله:

﴿واخذوا من مكان قريب﴾[1].

وقوله:

﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾[2].

وقوله:

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾[3].

ومن هذا الباب قوله سبحانه:

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾[4].

فالسبق إلى الشيء يوجب حيلولة، فقولك سبقت إلى مكان كذا يوجب وجود شيء آخر سبقته، وحلت بينه وبين المكان قبل أن يصل إليه، فسبق كلمة سبحانه إلى أجل مسمى، وهو قوله:

﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[5].

يعطي أنه محيط بهم قريب لولا السد الذي سده سبحانه تجاهه لغشيهم فصل القضاء.

ومن هذا الباب قوله:

﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحها﴾[6].

وقوله:

﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾[7].

---

(١) سورة سبأ الآية: ٥١.
(٢) سورة النحل الآية: ٧٧.
(٣) سورة آل عمران الآية: ٣٠.
(٤) سورة فصلت الآية: ٤٥.
(٥) سورة البقرة الآية: ٣٦.
(٦) سورة النازعات الآية: ٤٦.
(٧) سورة الأحقاف الآية، ٣٥.

وقوله :

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فسئل العادين قال ان لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾.

وقوله :

﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾.

ثم ان ما مر من ظهور الباطن وبطلان الظاهر يوجب ظهور الحق سبحانه يومئذ، وارتفاع حجب المهيآت وانتهاك استار الهويات وبلوغ الكل إلى غاية الغايات من سيرهم، ومنتهى النهايات من كدحهم ورجوعهم، وهو قوله سبحانه :

﴿يسألونك عن الساعة ايان مرسها فيم أنت من ذكرها إلى ربك منتهاها﴾[1].

وقوله سبحانه :

﴿وان إلى ربك المنتهى﴾[2].

وقوله :

﴿يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[3].

وقوله :

﴿وإليه ترجعون﴾[4].

وقوله :

﴿وإليه تقلبون﴾[5].

---

(١) سورة النازعات الآية: ٤٤.
(٢) سورة النجم الآية: ٤٢.
(٣) سورة الانشقاق الآية: ٦.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٤٥.
(٥) سورة العنكبوت الآية: ٢١.

وقوله:

﴿وإليه المصير﴾[1].

وقوله:

﴿إلا إلى الله تصير الأمور﴾[2].

وآيات أخرى في هذا المعنى، وقوله:

﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل إنما العلم عند الله﴾[3].

وقوله:

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرسها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[4].

فهم لزعمهم أنها أمر زماني في سلسلة متصلة بزمانهم، سئلوا توقيتها، فصرفهم سبحانه بما يقرب من افهامهم. ثم لما ألحوا فيه أجابهم بأن علمها لا يبرز من عند الله ويأبى بذاته عن الطلوع لغيره سبحانه، لا انه يقبل الحصول للغير وإنما أخفى اخفاءً لمصلحة أو غيرها كما في معلوماتنا، ولذلك عقبهُ سبحانه بقوله:

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ثم ان حجب المراتب والهويات حيث ارتفعت يومئذ، ولم يحتجب شيء عن شيء، فالوعاء وعاء النور وقد تبدلت الهويات فصارت متنورة وهو قوله سبحانه:

﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾[5].

---

(١) سورة المائدة الآية: ١٨.

(٢) سورة الشورى الآية: ٥٣.

(٣) سورة يونس الآية: ٤٨.

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٨٧.

(٥) سورة النبأ الآية: ١٩.

وقوله:

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾[1].

وقوله:

﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾[2].

إلى أن قال:

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾[3].

وقوله:

﴿وان الدار الآخرة لهي الحيوان﴾[4].

وقوله:

﴿وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت﴾[5].

وقوله:

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾[6].

وفي تفسير القمي عن السجاد (ع) في حديث في قوله سبحانه:

﴿تبدل الأرض غير الأرض﴾.

قال (ع): يعني بأرض لم تكتسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرة، ويعيد عرشه على الماء كما كان أول مرة مستقلاً[7]

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٤٨.

(٢) سورة الزمر الآية: ٦٧.

(٣) سورة الزمر الآية: ٦٩.

(٤) سورة العنكبوت الآية: ٦٤.

(٥) سورة الانشقاق الآية: ٤.

(٦) سورة الزلزلة الآية: ٢.

(٧) قوله (ع) مستقلاً بعظمته وقدرته تفسير لكون عرشه على الماء وله شواهد من الكتاب تدل على أن الماء اشارة إلى منبع كل حياة وقدرة وعظمة أن تحمل نقوش الخلقة ظهرت الموجودات وإذا انمحت عاد العرش على الماء فافهم والله الهادي منه.

بعظمته وقدرته. (الحديث).

وما ذكرناه في الاستفادة عن الآيات في تنوّر الموجودات لا ينافي آيات أخر تنفي النور عن الكافرين كقوله سبحانه:

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور﴾[1].

وقوله:

﴿ونحشره يوم القيامة اعمى﴾[2].

وقوله:

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾[3].

وقد قال سبحانه في المؤمنين:

﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم﴾[4] (الآية).

﴿ولهم أجرهم ونورهم﴾[5] (الآية).

وقوله سبحانه:

﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[6].

وقوله:

﴿أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾[7].

فإن ذلك ظهور ظلمات اكتسبتها أنفسهم في الدنيا، ولا بد أن يبدو لهم في الآخرة، فتلك ظلمة مع نور قد حرم المشركون عن افاضتها وكتبه الله للمؤمنين وقد مر نظير هذا المطلب في ارتفاع الحجب بين الانسان وبين ربه.

---

(١) سورة النور الآية: ٤٠.
(٢) سورة طه الآية: ١٢٤.
(٣) سورة الحديد الآية: ١٣.
(٤) سورة الحديد الآية: ١٢.
(٥) سورة الحديد الآية: ١٩.
(٦) سورة الأنعام الآية: ١٢٢.
(٧) سورة البقرة الآية: ٢٥٧.

ومن هذا الباب قوله سبحانه:

﴿**كذبوا على أنفسهم**﴾[1].

وقوله سبحانه:

﴿**فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون**﴾[2].

وقوله سبحانه:

﴿**فيحلفون له كما يحلفون لكم**﴾[3].

وهناك روايات أيضاً في أن المشركين يكذبون يوم القيامة، فهذه كما ذكرنا في غيرها أيضاً ظهور للمعصية التي اقترفوها في الدنيا يومئذ، ولا ينافي عدم قابلية اليوم للكذب، فكل ما يعمله الانسان من عمل أو يكسبه من فضيلة أو رذيلة لا بد وأن يظهر يوم القيامة، وقد قال سبحانه:

﴿**ولا يكتمون الله حديثاً**﴾[4].

وسيجيء في فصل الأعراف ما يتم به هذا البيان، ويتبين به أن الأمر واحد في نفسه، لكنه للمؤمنين رحمة وكرامة وللكافرين نقمة وعذاب فأحسن التدبر فيه فإنه دقيق.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٢٤.
(٢) سورة النحل الآية: ٢٨.
(٣) سورة المجادلة الآية: ١٨.
(٤) سورة النساء الآية: ٤٢.

الفصل الخامس
في قيام الإنسان

حيث أن المعـاد رجـوع الأشيـاء بتمـام ذاتهـا إلى مـا بـدأ منهـا، وهـو واجب بالضرورة كما مرت الإشارة إليه، فمن الضروري أن يكون ذلك بتمام وجودها، فما وجوده ذو مـراتب وجهات متحـدة بعضها مـع بعض يرجـع إلى هناك بتمـام وجوده بالضرورة، فلحوق بدن الانسان بنفسه في المعاد ضـروري غير أن النشـأة متبدلة إلى نشأة الكمال الأخير والحياة التامة، فالبدن كالنفس الحية حي نوراني.

ويشير إلى ذلك ما في الاحتجاج عن الصادق في كلامه مع الزنديق قال (ع): ان الـروح مقيمة في مكـانها، روح المحسن في ضيـاء وفسحـة، وروح المسيء في ضيق وظلمـة، والبدن يصـير ترابـاً منه خلق ومـا تقذف بـه السباع والهـوام من أجوافها ممـا أكلته ومـزقته كـل ذلك في التـراب، محفوظ عنـد من لا يعزب عنـه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وان تراب الروحـانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور فتربو الأرض ثم تمخض مخض السقاء فيصير تـراب البشر كمصير الـذهب من التراب إذا غسل بالمـاء، والزبـد هو اللبن إذا مخض، فيجتمـع تراب كـل قالب فينتقـل بإذن القادر إلى حيث الروح فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً. (الخبر).

أقول: وقولـه (ع): فإذا كـان حين البعث مـطرت الأرض مطر النشـور. . . (الآية). ورد في هذا المعنى عدة روايات منهم (ع) أيضاً. وهو مستفـاد من تمثيله سبحانه البعث والاحياء باحياء الأرض بعد موتها، قال سبحانه:

﴿وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾[2].

فالآيات كما ترى تعطي أن للانسان المادي أو لبدنه فقط تبدلات حتى يصل الغاية التي غياها سبحانه له ومثلها قوله سبحانه:

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾[3].

يفيد أن الذي جعل الشجر الأخضر بالتدريج، والتصرف بعد التصرف ناراً يضاد الخضرة، قادر على أن يجعل العظام الرميم حية، وفي هذا المجرى قوله سبحانه:

﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾[4].

ومثله قوله:

﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾[5].

والمراد بتبديل الأمثال ورود خلق بعد خلق، قال تعالى:

﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾[6].

---

(١) سورة ق الآية: ١١.
(٢) سورة الحج الآية: ٧.
(٣) سورة يس الآية: ٨٠.
(٤) سورة الواقعة الآية: ٦١.
(٥) سورة الانسان الآية: ٢٨.
(٦) سورة ق الآية: ١٥.

وقال:

﴿كل يوم هو في شأن﴾[1].

وليس المراد بها الأمثال المصطلح عليها في العلوم العقلية وبالاتحاد النوعي والاختلاف الشخصي، فإن مثل الشيء بهذا المعنى غير الشيء فلا يتم الحجة على منكري الحشر حينئذ بقوله:

﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾[2].

إذ خلق مثلهم على ذلك ليس إعادة لهم بالضرورة، بل المراد بخلق مثلهم وتبديل أمثالهم، التبدلات فيهم بحيث لا تخرج عن أنفسهم. كما أنه سبحانه في مثل هذا النظْم بدل المثل بالعين، فقال:

﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿ليس كمثله شيء﴾.

فالمراد بمثل الشيء نفس الشيء، وهو نوع من التلطف في الكلام.

فهذا كله يتضمن تبدلات الأبدان وورودها طوراً بعد طور وركوبها طبقاً عن طبق حتى تنتهي إلى الساعة، فتحلق بالأنفس، قال سبحانه:

﴿وإذا القبور بعثرت﴾[4] وقال ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾[5].

فعبر بكلمة (ما) ثم قال:

---

(١) سورة الرحمن الآية: ٢٩.
(٢) سورة يس الآية: ٨١.
(٣) سورة الأحقاف الآية: ٣٣.
(٤) سورة الشورى الآية: ١١.
(٥) سورة العاديات الآية: ٩.

﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾[1].

وهذا هو لحوق الأبدان بالأرواح كما ترى، وللأرواح مع ذلك سير في مسيرها وحركة في طريقها، قال سبحانه:

﴿من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[2].

فبين أن الروح كالملائكة تعرج إليه سبحانه في معارجه. والمعراج السلم ومثله قوله سبحانه:

﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾[3].

وقد جمع سبحانه أهل السعادة والشقاء جميعاً في قوله:

﴿ولكل درجات مما علموا﴾[4].

وقوله:

﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾[5].

وقال سبحانه في أهل الجنة:

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً﴾[6].

وقال في أهل النار:

﴿مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾[7].

إذ قد أخبر سبحانه أن لا وقود لجهنم غير أهلها فخبوها نفاد من فيها بالاحراق.

---

(١) سورة النازعات الآية: ١٤.

(٢) سورة المعارج الآية: ٤.

(٣) سورة غافر الآية: ١٥.

(٤) سورة الأنعام الآية: ١٣٢.

(٥) سورة الاسراء الآية: ٢١.

(٦) سورة البقرة الآية: ٢٥.

(٧) سورة الإسراء الآية: ٩٧.

الفصل السادس
في الصراط

قال سبحانه:

﴿ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم﴾[1].

وقال:

﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم أنهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون﴾[2].

فأخبر تعالى أن للجحيم صراطاً يهدي الظالمون إليها، مع أزواجهم وهم الشياطين كما يدل عليه قوله سبحانه:

﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾[3].

إلى أن قال:

﴿وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾[4].

والصراط كما تدل عليه هذه الآيات صراط على الجحيم أو فيها إذ قد أخبر سبحانه بالورود والنجاة والترك في هذه الآيات، وبالملأ الحتمي في قوله:

---

(١) سورة النساء الآية: ١٦٨.

(٢) سورة الصافات الآية: ٢٥.

(٣) سورة مريم الآية: ٦٨.

(٤) سورة مريم الآية: ٧٢.

﴿ولو شئنا لأتينا كل نفس هديها ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[1].

وهذا الصراط الممدود على جهنم ممر الخلائق أجمعين من بر وفاجر، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً ولقد كرر سبحانه في هذه الآيات لفظ الظلم، ومثله قوله سبحانه:

﴿الذين طغوا في البلاد﴾[2].

والطغيان الافراط في الظلم والاستكبار:

﴿فاكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿ان جهنم كانت مرصاداً﴾[4].

والظلم إما بتفريط في جنب الناس، وإما بتفريط في جنب النفس وإما بتفريط في جنب الله وهو الولاية التي لأولياء الله، والجميع يحصل باتباع الهوى والشيطان، وأصله الاغترار بزينة الحياة الدنيا والاخلاد إلى هذه الأوهام التي نسميها مجموعاً بنظام التمدن، وهو التناصر بالأوهام غير الحقائق. ولعل هذا هو المسؤول عنه في قوله سبحانه:

﴿وقفوهم أنهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون﴾[5].

وممّا مر يظهر معنى ما ورد من الروايات في الباب؛ ففي تفسير القمي في قوله تعالى:

---

(١) سورة السجدة الآية: ١٣.
(٢) سورة الفجر الآية: ١١.
(٣) سورة الفجر الآية: ١٣.
(٤) سورة الصافات الآيات: ٢٤ ـ ٢٦.

﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ (الآية).

عن الباقر (ع)، قال: لما نزلت هذه الآية:

﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ (الآية).

سئل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال ﷺ: أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجمع الأولين والآخرين أتى بجهنم تقاد بألف زمام آخذ بكل زمام مئة ألف يقودها من الغلاظ الشداد، لها هدة وغضب وزفير وشهيق، وانها لتزفر زفرة فلولا أن الله أخرهم للحساب لأهلكت الجميع، ثم يخرج منها عنق فيحيط بالخلائق البر منهم والفاجر ما خلق الله عبداً من عباد الله ملكاً ولا نبياً إلا ينادي رب نفسي نفسي، وأنت يا نبي الله تنادي: أمتي أمتي! ثم يوضع عليها الصراط أدق من الشعر، وأحد من حد السيف، عليه ثلاث قناطر: فأما واحدة فعليها الأمانة والرحم، والثانية فعليها الصلاة، والثالثة فعليها رب العالمين، لا إله غيره. فيكلفون المر عليها فيحبسهم الرحم والأمانة، فإن نجوا منها حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى رب العالمين، وهو قوله:

﴿ان ربك لبالمرصاد﴾.

فمتعلق بيد وتزل بقدم ويستمسك بقدم والملائكة حولها ينادون يا حليم اعف واصفح وعد بفضلك وسلم سلم والناس يتهافتون في النار كالفراش فيها فإذا نجا ناج برحمة الله مر بها فقال: الحمد لله وبنعمته تتم الصالحات وتزكو الحسنات والحمد لله الذي نجاني منك بعد أياس بمنه وفضله ان ربنا لغفور شكور. وروى الكليني في الكافي والصدوق في الأمالي ما في معناه.

وفي العلل عن الصادق (ع)، في تفسير قوله: (انهم مسؤولون) قال (ع): لا يجاذبه قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله من أين جمعه وفيما أنفقه وعن حبنا أهل البيت.

وروى القمي في تفسيره عن الصادق (ع)، والصدوق في الأمالي، والعيون

عن النبي ﷺ: أن المسؤول عنه ولاية أمير المؤمنين (ع).

وفي المجمع عن النبي ﷺ قال: يرد الناس النار ثم يصدرون بأعمالهم، فأولهم كلمع البرق، ثم كمر الريح، ثم كمحضر الفرس، ثم كالراكب، ثم كشد الرجل، ثم كمشيه.

وعنه ﷺ تقول النار للمؤمن يوم القيامة جزْيا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي.

وعن النبي ﷺ أيضاً أنه سئل عن قوله تعالى:

﴿وإن منكم إلا واردها...﴾ (الآيات).

فقال إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار، فقال قد وردتموها وهي خامدة.

أقول وبالتأمل فيما قدمنا وفي ما سيجيء في الشفاعة يتضح معنى هذه الأحاديث والله الهادي.

الفصل السابع
في الميزان

قال سبحانه:

﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بأيتنا يظلمون﴾[*].

بين سبحانه أن الوزن حق ثابت يوم القيامة ثم قال:

﴿فمن ثقلت موازينه﴾ و ﴿من خفت موازينه﴾.

ولعل الجمع باعتبار عدد الزنات والثقل في الحسنات والخفة في السيئات مع ان ظاهر الأمر يقتضي العكس كما قال والعمل الصالح يرفعه، ويرفع الله الذين آمنوا وقال:

﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾[1].

وبناء على ما بينه سبحانه من بوار السيئات وبقاء الحسنات قال تعالى:

﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[2].

فالثقل إنما هو للحسنات دون السيئات، وفي قوله سبحانه:

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ (الآية).

إشارة إلى ذلك.

(*) سورة الأعراف الآية: ٩.

(١) سورة التين الآية: ٥.

(٢) سورة الرعد الآية: ١٧.

ثم أنه سبحانه قال:

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[1].

ففسر الموازين بالقسط وهو العدل في مقابلة الظلم، وبين وجه الثقل في الحسنات والخفة في السيئات.

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين (ع)، في قوله تعالى:

﴿فمن ثقلت موازينه﴾ (الآية).

قال (ع): إنما يعني الحسنات. توزن الحسنات والسيئات والحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان.

وفي الاحتجاج عنه (ع): هي قلة الحسنات وكثرتها. (الحديث). ويتبين بما مر معنى قوله سبحانه:

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾[2].

إذ لا معنى لوضع الميزان والوزن مع الحبط.

وبه يتبين أن الوزن بالميزان يوم القيامة يختص بالأعمال غير المحبطة، ولذلك فالآية لا تنافي قوله سبحانه:

﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾[3].

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٤٧.

(٢) سورة الكهف الآية: ١٠٥.

(٣) سورة المؤمنون الآية: ١٠٦.

وفيـا مر يـظهر معنى مـا ورد عنهم (ع) من الروايـات: ففي الاحتجـاج عن الصادق (ع)، حيث سأل عنه الزنديق، أو ليس توزن الأعمـال؟ قال: لا، لأن الأعمال ليست أجسامـاً، وإنما هي صفـة ما عملوا، وإنمـا يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها ولا خفتها، وان الله لا يخفى عليه شيء. قال: فما معنى الميزان؟ قال (ع): العدل. قال: فما معناه في كتـابه، «فمن ثقلت موازينه؟» قال (ع): فمن رجح عمله. (الخبر).

وفي التـوحيد عن أمـير المؤمنين (ع)، في خبـر من ادعى التناقض بـين آيـات القرآن قال (ع): وأما قوله: «ونضع الموازينَ القسط» فهو ميـزان العدل، يؤخـذ بـه الخـلائق يـوم القيـامـة، يـدين الله تبـارك وتعـالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين. (الخبر).

وفي الكافي والمعاني عن الصادق (ع) وقد سئل عن قوله تعالى:

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾.

قال: الأنبياء والأوصياء.

أقول: ووجهه واضح مما مر.

وفي الكافي عن السجاد (ع)، في كـلام له في الـزهد: «واعلمـوا عباد الله أن أهل الشرك لا ينصب لهم المـوازين، ولا ينشر لهم الدواوين، وإنمـا يحشرون إلى جهنم زمراً. وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهـل الإسلام واتقـوا الله عباد الله». (الخبر).

الفصل الثامن
في الكتب

قال سبحانه:

﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقيه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[1].

بين سبحانه أنه ألزم الانسان طائره وهو عمله الذي يتفاءل به ويتشاءم، فطائر الانسان عمله الذي قلده ولذلك وصفه بأنه في عنقه. وقد كانت الأعمال التي تحفظ للانسان وعليه غير محسوسة ولا ظاهرة؛ إذ الحس في الدنيا لا يجاوز سطح الأشياء، والاستدلال فيها إنما هو بالآثار، لكن نشأة القيامة نشأةٌ تبلى فيها السرائر وبرزوا لله جميعاً فلذلك وصف الطائر بأنه سيخرج له كتاباً منشوراً وقال سبحانه:

﴿أحصاه الله ونسوه﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾[3].

ونسب الاحصاء والبداء واللزوم إلى نفس الأعمال، إذ كان الكتاب مشتملاً على نفسها أو حقائقها دون الخطوط التي نصطلح عليها فيما عندنا من الكتابة وهو قوله سبحانه:

---

(١) سورة الإسراء الآية: ١٤.

(٢) سورة المجادلة الآية: ٦.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٢٨.

﴿يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[1].

وقوله سبحانه:

﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾[2].

ومن هذا الباب قوله سبحانه:

﴿يومئذ يتذكر الانسان وأنّى له الذكرى﴾[3].

وقوله:

﴿ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر﴾[4].

وقد مرّ أن هذا اليوم محيط بجميع المراتب الوجودية، فالأعمال كما تحضر بأنفسها تحضر بحقائقها التي ظهرت منها وهو قوله سبحانه:

﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾[5].

وهذا هو الكتاب المخصوص الذي يشتمل على نفس الأعمال، ثم قال سبحانه:

﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[6].

وهذا هو الكتاب المبين الذي مكتوب فيه ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة كما في الأخبار، ومنه النسخ الجزئية كلها، ومنه تستنسخ الأعمال في نشأة ظهورها، وهو المشتمل على حقائقها والحجة على الكل ولعله المراد بقوله سبحانه:

---

(١) سورة الزلزلة الآية: ٧ و ٨.
(٢) سورة الأحقاف الآية: ١٩.
(٣) سورة الفجر الآية: ٢٣.
(٤) سورة القيامة الآية: ١٣.
(٥) سورة الجاثية الآية: ٢٨.
(٦) سورة الجاثية الآية: ٢٩.

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب﴾[1].

وفي الكافي عن الصادق (ع) في حديث اللوح، وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها: أو لستم عرباً فكيف لا تعرفون معنى الكلام، وأحدكم يقول لصاحبه انسخ ذلك الكتاب، أوليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل، وهو قوله:

﴿انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.

وفي تفسير العياشي عن خالد بن نجيح عن الصادق (ع)، قال: «إذا كان يوم القيامة دفع إلى الإنسان كتابه»، ثم قيل له: اقرأ قلت: فيعرف ما فيه، فقال: إن الله يذكره، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم، ولا شيء فعله إلّا ذكره كأنه عمله تلك الساعة، فلذلك قالوا: يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وفيه أيضاً عن خالد بن يحيى عن الصادق (ع)، قريب منه.

أقول: وقد فسر (ع) القراءة بالذكر، وقد ذكرنا في رسالتي الأفعال والوسائط في الكتاب كلاماً أبسط من هذا[2].

(١) سورة الزمر الآية: ٦٩.

(٢) جاء في رسالة الأفعال:

«... على أن كل فعل متحقق في دار الوجود مع اسقاط جهات النقص عنه وتطهيره من ادناس المادة والقوة والإمكان، وبالجملة كل جهة عدمية فهو فعله سبحانه، بل حيث كان العدم وكل عدمي بما هو عدمي مرفوعاً عن الخارج حقيقة، إذ ليس فيه إلا الوجود وأطواره ورشحاته، فلا فعل في الخارج إلا فعله سبحانه وتعالى. وهذا أمر يدل عليه البرهان والذوق أيضاً...» رسائل التوحيدية ـ طبعة قم ١٣٦٥ هـ. رسالة الأفعال ـ صفحة ٥٥ ـ ٥٦.

وجاء في رسالة الوسائط:

«... ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ تدل بعمومها على أن لجميع موجودات عالمنا هذا وجودات مخزونة عنده تعالى ذات سعة غير محدودة ولا مقدرة إذ ظاهرها أن التقدير إنما يحدث مع =

ثم أنه سبحانه قال:

﴿انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾[1].

فعمم الكتابة لأعمالهم التي فعلوها بلا واسطة وما يترتب عليها من الآثار، فالكل محاسب به ويظهر به معنى قوله:

﴿ينبؤ الانسان يومئذ بما قدم وأخّر﴾[2].

وفي تفسير القمي عن الباقر (ع): «بما قدم من خير وشر وما أخر» فما سن من سنة يستن بها فإن كان شراً كان عليه مثل وزرهم ولا ينقص من وزرهم شيئاً وإن كان خيراً كان له مثل أجورهم ولا ينقص من أجورهم شيئاً ثم عقبه سبحانه بقوله:

﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[3].

ومن هنا يظهر أن اللوح المحفوظ يحاسب به العباد كما يحاسبون بالألواح المخصوصة لكل واحد منهم.

ويظهر أيضاً أن الكتاب الذي ذكره سبحانه بقوله:

﴿هذا كتابنا ينطق عليكم﴾ الخ.

هو اللوح المحفوظ فإنه وصف الكتاب في هذه الآية بالإمامة وهو المتبوعية في الأعمال، ووصفه هناك باستنساخ الأعمال منه فهو واحد.

= التنزيل، وليس التنزيل بالتجافي وتخلية المحل بالنزول.... وبعبارة أخرى إن في كل شيء وجهاً إلهياً ووجهاً كونياً خلقياً، وهذا الوجه حيث أنّه بمقدار فهو محدود مثالي، وقد أفاد قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا...﴾ (الآية)، وجهاً آخر غير محدود ولا مقدّر...».

(رسائل التوحيدية طبعة قم سنة ١٣٦٥، رسالة الوسائط: صفحة ١٠٩ ـ ١١٠).

(١) سورة يس الآية: ١٢.

(٢) سورة القيامة الآية: ١٣.

(٣) سورة يس الآية: ١٢.

ثم بيّن سبحانه تفاوت أخذهم الكتاب بالسعادة والشقاوة فقال:

﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه إني ظننت إني ملاق حسابيه﴾[١].

إلى أن قال:

﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه﴾[٢].

واليمين والشمال جانبا الإنسان: القوي والضعيف أو اليدان التاليتان لهما أو جانبا السعادة والشقاوة.

وليس المراد وضع الكتاب في يد الانسان اليمنى أو اليسرى على ما يفهمه الظاهريون من المحدثين وغيرهم، إذ لم يقل سبحانه أوتي كتابه ليمينه أو لشماله، بل أتى بالباء المفيد للوساطة ويشهد به قوله سبحانه:

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً﴾[٣].

فقد وضع مكان الشمال قوله وراء ظهره، وقوله سبحانه:

﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾[٤].

فقد قال سبحانه إنه يدعوهم بإمامهم، ولم يقل إلى إمامهم، وقد قال كل أمة تدعى إلى كتابها ولم يقل بكتابها، فالدعوة بالإمام غير الدعوة إلى الكتاب.

ثم فصله سبحانه بأن طائفة منهم بعد ذلك يؤتي كتابه بيمينه أي بواسطة

(١) سورة الحاقة الآية: ٢٠.
(٢) سورة الحاقة الآية: ٢٦.
(٣) سورة الانشقاق الآية: ١١.
(٤) سورة الاسراء الآية: ٧٢.

اليمين، فيمينه إمامه الحق الذي يدعى به، ثم بدل الايتاء بالشمال بقوله ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

فظهر به أن الايتاء باليمين نور واهتداء في الآخرة كما قال سبحانه:

﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم﴾[1].

وقال:

﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾[2].

ومن هنا يظهر أن النور هو الإمام والمراد هو اللحوق به والكلام فيه كثير، وبالجملة فيشبه أن يكون المراد باليمين والشمال البركة والشأمة والسعادة والشقاوة دون اليدين اليمنى واليسرى، وقد عبر سبحانه في سورة الواقعة عن الطائفتين تارة بقوله:

﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾[3].

وتارة بقوله:

﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾[4].

وتارة بقوله:

﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم﴾[5].

---

(١) سورة الحديد الآية: ١٢.
(٢) سورة الحديد الآية: ١٩.
(٣) سورة الواقعة الآية: ٤١.
(٤) سورة الواقعة الآية: ٩.
(٥) سورة الواقعة الآية: ٩٣.

فوضع في مكان أصحاب الشمال المكذبين الضالين فهم أصحاب شقاء وأصحاب تكذيب وضلال، وكأنه إشارة إلى قوله:

﴿ومن خفت موازينه إلى أن قال ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾[1].

وقد عرفت هناك كون الآية في أصحاب الشقاء من ضلال المليين، ونقضة عهد الأئمة الحق، وأما الكفار الجاحدون فلا يقيم سبحانه لهم وزناً؛ فلا كتاب لهم ولا حساب.

وبالجملة فأصحاب الشمال هم الأشقياء أصحاب الضلال ولذلك فهم يقولون فيما حكى عنهم سبحانه:

﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾.

فهذه الأمور هي الصادة إياهم عن اتباع الحق بعد الإذعان به، فكل من أصحاب السعادة والشقاوة مدعو بإمامه، ملحق به، يؤتى بكتابه به وهو اللحوق الذي يشتمل عليه أخبار الطينة والسعادة والشقاوة الذاتيتين. وسيأتي ذكر منه إن شاء الله، ولذلك كان أصحاب الشقاء يؤتون كتابهم بشمالهم ووراء ظهرهم اذائمتهم قدامهم، ووجوههم منكوسة مطموسة. قال سبحانه في فرعون:

﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾[3].

وقال سبحانه:

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٠٦.
(٢) سورة هود الآية: ٩٨.
(٣) سورة النساء الآية: ٤٧.

﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نـاراً﴾[1]

وقد مر أن النور هو الإمام الحق هذا.

والاعتبار أيضاً يساعد هذا المعنى، فإن الإنسان بوجوده الدنيوي، اعني بدنـه الحي بقواه واحساساته على ما نزل من عند الحكيم الخبـير ودبره العليم القـدير، متوجه القوى والإحساسات إلى جهتي القدام واليمين، وأما جهتا الشمال والوراء فعندهما نفـاد القوى وهـلاك الاحساس، والإنسـان إذا شقي واخلد إلى الأرض واتبع هواه أقبل إلى الأرض ووجه وجهه لها، وإذا قام لربه وأحضر لحسابه واتبع الدعي لا عوج له، سار ووجهه إلى خلفه، فحالهم حال ضـرير منكـوس الوجـه مدهوش ساع إلى غاية لا يدري ما يفعل ولا ماذا يفعل به.

واعلم أن الإمام الحق على أنه مهيمن على أناس دعوا به، كذلـك هو مهيمن على إمام الباطل وحزبه، قال سبحانه:

﴿انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[2].

فـوصف الكتاب المحصي لكـل شيء من السعادة والشقـاوة بالإمـامـة، وقـال أيضاً:

﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[3].

فالإمام الذي هو الكتاب، حاكم في الفريقين: السعيد والشقي، مهيمن على الطائفتين جميعاً.

وهذا غير مناف لما مر أن الدعوة إلى الكتاب غير الدعوة بالإمام، فإنه سبحانه ما وصف صحف الأعمال بالإمامة بل وصفها بالإلزام والمتابعة، وقال:

﴿الزمناه طائره﴾ (الآية).

(١) سورة الحديد الآية: ١٣.
(٢) سورة يس الآية: ١٢.
(٣) سورة الجاثية الآية: ٢٩.

وإنما وصف بالإمامة اللوح المحفوظ الذي منه يستنسخ الأعمال وصحف الأعمال وهو الأصل المتبوع والإمام المقتدي الذي عليه مدار أمور العالم برمتها.

واعلم أنه سبحانه فسَّر الإمامة في آيات كثيرة بالولاية، غير أنه وصف نفسه بالولاية دون الإمامة لاقتضائه سنخية[1] ما بين الإمام والمأموم وهو واضح.

وبالجملة فإمام الحق ولي المؤمنين، وأئمة الباطل أولياء الكافرين، والوجه في جميع ذلك واضح وبه ينحلّ عقد الأخبار التي تدل على حكومة أرباب الولاية في أمر الناس يوم القيامة وسيأتي عدة منها.

واعلم أيضاً أن الكتاب يؤتى للطائفتين من الناس وهنا جماعة غيرهم وهم السابقون المقربون، قال سبحانه:

﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾[2].

فهؤلاء هم المخلصون المستثنون من حكم الصور والاحضار والميزان، وقد استثنوا من حكم اعطاء الكتاب أيضاً، وستجيء مزايا أخر من أحوالهم في يوم القيامة، فحكم الكتاب واقع على غيرهم من أصحاب الأعمال إلا المستثنون من المعاندين الجاحدين كما مر. قال سبحانه:

﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾[3].

فهي فيمن له عمل، فاما من ارتفع عن سطح العمل ممن ليس له إلا الله تعالى كالمخلصين، ومن حبط عمله من المكذبين المنكرين للقاء الله فلا كتاب له أصلاً، ثم قال سبحانه:

﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾[4].

---

(١) سنخ في العلم = رسخ فيه.
(٢) سورة الواقعة الآيات: ٧ ـ ١١
(٣) سورة الإسراء الآية: ١٣.
(٤) سورة الإسراء الآية: ١٣.

ويشبه أن يكون الكتاب غير الطائر الملزم في عنقه إذ لم يقل سبحانه «ونخرجه» وكان حق الكلام ذلك لو كان كذلك؛ فالآية في مساق قوله:

﴿وإذا الصحف نشرت﴾[1].

ثم قال سبحانه:

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[2].

ويظهر منه أن حال الكتاب وقراءته يومئذ غير حال الكتاب وقراءته عندنا في الدنيا، وإنما هو الذكر، قال سبحانه:

﴿ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾[3].

وهذا في تفاصيل الأعمال، وقال:

﴿بل الانسان على نفسه بصيرة﴾.

وهذا في الاجمال. وقد مرت الرواية في كيفية قراءة الكتاب، والله أعلم.

---

(١) سورة التكوير الآية: ١٠.

(٢) سورة الإسراء الآية: ١٤.

(٣) سورة القيامة الآية: ١٣.

الفصل التاسع

في الشهداء يوم القيامة

قال سبحانه:

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾(1).

وقد عد سبحانه أصنافاً من الشهداء على الأعمال يوم القيامة والشهادة على الشيء هي تلقيه بالحضور والرؤية ويسمى تحملها وحكايتها كلاهما شهادة. ومن المعلوم أن الشهادة على الأعمال ليست على مجرد صورها الظاهرة بل على ما هي عليها من الطاعة والعصيان والسعادة والشقاوة إذ هو قضية القضاوة وسيما من أحكم الحاكمين.

وهذه الأوصاف غير ممكنة الإحراز إلا بارتباط الشاهد على محتد هذه الأعمال من الضمائر والسرائر وخصوصيات انتشاءات الأعمال من الإرادات والقصود، فالشهادة يومئذ على أنه تشريف للشاهد بالاذن في كلامه كما قال سبحانه:

﴿لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾.

إنما يختص بها من آتاه الله سبحانه هذه الكرامة في الدنيا وهي الوقوف على حقائق الأعمال ومحتدها من الضمائر والسرائر، قال سبحانه:

﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾(2).

---

(1) سورة الزمر الآية: ٦٩.

(2) سورة النبأ الآية: ٣٨.

والصواب خلاف الخطأ، وقال:

﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾[1].

فالشهادة يومئذ إنما تتحقق ممن حفظ أعمال العاملين على حقيقتها من غير خطأ وعوج.

وأنت إذا تأملت هذه البنية الانسانية على قواها وحواسها وجدت أن هذه الشهادة والتلقي مستحيلة في حقها بالنسبة إلى أعمال الحاضرين فضلاً عن الغائبين ومع الحضور من الشاهد فضلاً عن الغيبة ومع القرب فضلاً عن البعد وهو واضح فليس إلا أن ذلك بأمر آخر وقوة أخرى وراء ما عند الانسان المتعارف من القوة والاحساس يمس باطن الانسان ذي الأعمال كمسه بظاهره وبالغائب كالحاضر وبالبعيد كالقريب فهو نور غير جسماني لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الجسم في تأثيراته وأعماله من خصوصيات الزمان والمكان والحال، فهو نور يبصر به السرائر ويميز به الطيب من الخبيث، قال سبحانه:

﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما ادراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين﴾[3].

وقد مر في الفصل السابق أن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال يؤتون كتابهم بامامهم الحق وقال سبحانه أيضاً:

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[4].

(١) سورة الزخرف الآية: ٨٦.
(٢) سورة المطففين الآية: ٢٠.
(٣) سورة المطففين الآية: ٩.
(٤) سورة التوبة الآية: ١٠٥.

والخطاب عام غير مختصّ بالمنافقين، وهو يقتضي خصوصية المراد بقوله:

﴿**المؤمنون**﴾ (الآية).

وفيه تلويح بأن رؤية الرسول والمؤمنين لأعمالهم ستندرج في ضمن ما سينبئهم سبحانه بما كانوا يعملون.

وروى القمي في تفسيره عن الصادق (ع) أن أعمال العباد تعرض على رسول الله كل صباح، ابرارها وفجارها، فاحذروا وليستحيي أحدكم أن يعرض على نبيِّه العملَ القبيح.

وروى العياشي في تفسيره عن الصادق (ع) أنه سئل عن قوله:

﴿**وقل اعملوا**﴾ (الآية).

فقال: والمؤمنون هم الأئمة.

والأخبار الواردة في الكافي والأمالي والمناقب والبصائر والتفسيرين للقمي والعياشي في هذا المعنى فوق حد الاستفاضة.

وبالجملة، فتحمل هذه الشهادة هو بشهادة نفس الأعمال وكذلك أدائها يوم القيامة، وكذلك المجازاة بها يومئذ، قال تعالى:

﴿**وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون**﴾[1].

وأما أصناف الشهداء؛ فمنهم؛ الشهداء الأولياء المقربون من البشر كالأنبياء والصالحين من الأولياء، قال سبحانه:

﴿**وجيء بالنبيين والشهداء**﴾.

وتمييز النبيين من الشهداء كأنه نوع تشريف لهم كما قيل، وقال سبحانه:

---

(١) سورة الزمر الآية: ٧٠.

﴿ويـوم نبعث من كـل أمـة شهيـداً ثم لا يؤذن لـلذين كـفـروا ولا هم يستعتبـون﴾[1].

والأمـة: الجماعـة من الناس، وإذا أضيفت إلى شيء كنبي أو زمـان أو مكان تميزت به، فالآية عـامة لجميـع الأولياء ولـو اجتمع عـدة منهم في أمة نبي وقـال سبحانه:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونـوا شهداء عـلى الناس ويكـون الرسـول عليكم شهيـداً﴾[2].

والبيان السابق في معنى الشهيد يوضح أن هذه العطية والكرامة منـه سبحانـه ليست عامة لجميع أمة محمد ﷺ، بل هي خاصة لبعض الأمة. والخطاب الواقع لجميع الأمة بظاهره باعتبار وجودهم فيها، وهـو ذائع دائـر في الخطابـات كقولـه سبحانه:

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء﴾.

إلى آخـر الآية، فـإنـه شـامـل بـظاهـره لجميـع من معـه، وفيهم المنـافقـون والفاسقون باجماع الأمة، وأمثاله كثيرة.

وبـالجملة فالشهـداء من هذه الأمـة شهداء عـلى النـاس، والـرسـول شهيـد عليهم، فـالأمة الشهيـدة وسط بين الـرسول ﷺ والنـاس كـما ذكـره سبحـانـه، وكذلك قوله سبحانه:

﴿هـو اجتباكم ومـا جعل عليكم في الـدين من حرج ملة أبيكم إبـراهيم هو سمـاكم المسلمين من قبـل وفي هذا ليكـون الرسـول شهيـداً عليكم وتكـونـوا شهداء على الـنـاس﴾[3].

وهذه الآية في اختصاص الشهداء اصرح من سابقتها، وفي قوله سبحانه:

(١) سورة النحل الآية: ٨٤.
(٢) سورة البقرة الآية: ١٤٣.
(٣) سورة الحج الآية: ٧٨.

﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾.

إشارة إلى دعاء إبراهيم (ع) مع ولده إسماعيل (ع) عند بناء الكعبة:

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[1].

ودعاؤه (ع) حيث أنه لولد ابراهيم وإسماعيل معاً ولمن في مكة، فهو لقريش. وحيث أنه (ع) دعا أولاً بإسلامهم لله (وإراثة) الله إياهم مناسكهم وتوبته لهم، ثم دعا ببعث رسول يطهرهم ويزكيهم فهم جمع من قريش جمعوا بين طهارة الذات﴾[2]والهداية والاهتداء إلى عهود الله، وبين الإيمان برسوله والتزكي والتطهر بتزكيته وتطهيره، فهم أشخاص مخصوصون بكرامة الله سبحانه من بين الأمة وقوله:

﴿ليكون الرسول﴾ بيان لغاية قوله ﴿هو اجتباكم﴾.

وما ذكرناه في معنى الآية هو الذي تفسره به الأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت.

ففي الكافي وتفسير العياشي عن الباقر (ع): نحن الأمة الوسط ونحن شهداء الله على خلقه، وحججه في أرضه وسمائه.

وعن شواهد التنزيل عن أمير المؤمنين (ع) إيانا عني بقوله: «لتكونوا شهداء على الناس»، فرسول الله شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحجته في أرضه، ونحن الذين قال الله:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٢٩.

(٢) أهل السعادة الذاتية والسعادة المكتسبة وبعبارة أخرى طهارة الذات والتبعية منه.

وفي المناقب عن الباقر (ع) في حديث: ولا يكون شهداء على الناس إلاَّ الأئمة والرسل، فأما الأمة فإنه غير جائز أن يستشهدها الله، وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على خرمة بقل.

وفي تفسير العياشي عن الصادق (ع) قال: ظننت أن الله تعالى عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، افترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر، يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلا! لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأئمة الذين وجبت لهم دعوة ابراهيم، وهم الأمة الوسطى، وهم خير أمة أخرجت للناس. والأخبار في هذا المعنى كثيرة مستفيضة.

ومن هنا يظهر معنى قوله سبحانه:

﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾[1].

فحيث أنه صلى الله عليه وآله ليس شاهداً على الناس من أمته بلا واسطة، بل على الشهداء منهم، فالمشار إليهم بقوله: «على هؤلاء» هم الشهداء من كل أمة، المذكور في الآية.

واصرح منها قوله سبحانه:

﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾[2].

وذلك لمكان قوله تعالى:

﴿من أنفسهم﴾.

وقوله:

﴿نبعث، وجئنا﴾.

---

(١) سورة النساء الآية: ٤١.

(٢) سورة النمل الآية: ٨٩.

فرسول الله كما أنه شهيد على الشهداء من أمته، شهيد على جميع الشهداء.

وروى القمي في قوله تعالى:

﴿شهيداً على هؤلاء﴾.

يعني على الأئمة فرسول الله شهيد على الأئمة وهم شهداء على الناس.

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين (ع) في حديث يذكر فيه أحوال أهل الموقف قال (ع): فيقام الرسل فيسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى أممهم فاخبروا أنهم قد أدّوا ذلك إلى أممهم، ويسأل الأمم فيجحدون كما قال الله:

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فيقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾[1].

فيستشهد الرسل رسول الله ﷺ فيشهد بصدق الرسل ويكذب من جحدها من الأمم فيقول لكل أمة منهم: بلى قد جاءكم بشير ونذير، والله على كل شيء قدير، أي مقتدر بشهادة جوارحكم بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم ولذلك قال الله لنبيِّه: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً. (الحديث).

وروى العياشي في تفسيره عن أمير المؤمنين (ع) في صفة يوم القيامة قال (ع): يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلق فلا يتكلم أحد إلَّا من أذن له الرحمن وقال صواباً، فيقام الرسل فيسأل فذلك قوله لمحمد ﷺ: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً وهو الشهيد على الشهداء، والشهداء هم الرسل، وقد مر كلام في معنى الجحد والحلف والكذب الواقع في هذه الأحاديث.

ومن الشهداء الملائكة الكتبة، قال سبحانه:

---

(١) سورة المائدة الآية: ١٩.

﴿وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾[1].

وقال:

﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[2].

إلى أن قال:

﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الشهداء الجوارح والأعضاء قال سبحانه:

﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾[5].

وقال سبحانه:

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾[6].

وقال سبحانه:

﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤوها شهد

---

(١) سورة يونس الآية: ٦١.
(٢) سورة ق الآية: ١٨.
(٣) سورة ق الآية: ٢١.
(٤) سورة الانفطار الآية: ١١.
(٥) سورة يس الآية: ٦٥.
(٦) سورة النور الآية: ٢٤.

عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارديكم فأصبحتم من الخاسرين﴾[1].

وسياق الآيات واردة في أهل النار، فشهادة الجوارح مخصوصة بهم، وهي من الشواهد على شمول خطابات الفروع لغير المؤمنين.

وقوله تعالى:

﴿وقالوا لجلودهم﴾ (الآية).

وجه تخصيصهم السؤال بالجلود دون الجميع، ان السمع والبصر ارفع عن المادة وأقرب إلى الحياة والفهم بخلاف الجلود وهي الفروج وما يتلوها في الحكم، فهي أوغل في المادة، وشهادتها أعجب وأقْطَع.

وقوله تعالى:

﴿قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء﴾ (الآية).

جوابها لهم وقد عدلوا عن الشهادة إلى النطق ثم إلى الانطاق اشعاراً بأن الأمر إلى الله لا إليهم، فلا وجه لعتابهم له بوضعهم موضع المستقل التام الاختيار في أمرهم بعد ما كان نطق كل شيء منه سبحانه وليس لشيء من الأمر شيء، ولذا أردف ذلك بقوله:

﴿وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ (الآية).

فالبدء والعَوْد كلاهما له سبحانه، وهو القائم على كل نفس، فليس سبحانه غائباً عن شيء بل هو الرقيب. وإنما يرقب الشيء بالشيء، ويحتجب بالشيء عن الشيء، ولذا أردفه سبحانه بقوله:

---

(١) سورة فصلت الآية: ٢٣.

﴿وما كنتم تستترون﴾ (الآية).

كأنه يقول ما كنتم تحتجبون عن شهادة الجوارح، لا لأنكم لا تحذرون منها، ومن نتيجة شهادتها، ولكن ظننتم استقلال الأشياء وغيبة الحق سبحانه عنها، وان كل واحد منها منفصل عن الحق، ليس مرصاداً له سبحانه، فظننتم أنه لا يعلم كثيراً مما تعلمون. وهذا هو الغفلة عن الحق سبحانه وأنه على كل شيء شهيد. وان كل ما يحضر عند شيء أو يعلمه شيء فهو حاضر عنده بعينه معلوم له بعينه:

﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارديكم فأصبحتم من الخاسرين﴾.

واعلم أن هذا الأصل، وهو أن علم الوسائط وقدرتها وسائر كمالاتها بعينها له سبحانه، كثير الفروع في القرآن، كقوله سبحانه:

﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[1].

وقوله:

﴿أم يحسبون إنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾[2].

وقوله:

﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾[3].

إلى غير ذلك من الآيات فترى أنه سبحانه خلط علمه بعلم الألواح والكتبة.

وبما مر من المعنى يظهر معنى قوله:

﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

---

(١) سورة سبأ الآية: ٢٢.

(٢) سورة الزخرف الآية: ٨٠.　　(٣) سورة ق الآية: ١٧.

وقد تكرر هذا اللفظ في القرآن كثيراً.

ثم اعلم أنه يتحصل من الآيات المزبورة أن الحياة سارية في جميع الأشياء إذ إيجاد النطق والكلام عند شيء ليس شهادة منه إلا إذا كان الكلام له، وهو الحياة، وكذلك إفاضة الحياة يوم القيامة فحسب لشيء وإنبائه عن واقعة قبل اتصافه بالحياة كوقائع الدنيا ليس شهادة منه، إذ لا حضور ولا تحمل.

وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه:

﴿ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم من دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[1].

وقوله سبحانه في وصف الهتم:

﴿أموات غير أحياء وما يشعرون ايان يبعثون﴾[2].

وفيما مرَّ من المعاني أخبار كثيرة.

ففي الكافي عن الباقر (ع) في حديث، وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب، فأما المؤمن فيؤتى كتابه بيمينه الحديث.

أقول يشير (ع) إلى ما في ذيل آيات الشهادة المذكورة:

﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس انهم كانوا خاسرين﴾[3].

وفي تفسير القمي والفقيه عن الصادق (ع) في قوله تعالى:

﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ (الآية).

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٦.

(٢) سورة النحل الآية: ٢١.

(٣) سورة فصلت الآية: ٢٥.

قال: يعني بالجلود الفروج والأفخاذ.

وفي تفسير القمي قال (ع): إذا جمع الله الخلق يوم القيامة دفع إلى كل إنسان كتابه، فينظرون فيه فينكرون أنهم عملوا من ذلك شيئاً، فيشهد عليهم الملائكة فيقولون: يا رب ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من ذلك شيئاً وهو قوله:

﴿ثم يبعثهم الله﴾.

فيحلفون له كما يحلفون لكم. فإذا فعلوا ذلك ختم على ألسنتهم وينطق جوارحهم بما كانوا يكسبون.

ومن الشهداء: الزمان، والمكان والأيام الشريفة والشهور والأعياد والجمع والأرض والبقاع والمساجد وغيرها قال سبحانه:

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾[1].

والبيان المذكور آنفاً يوضح ههنا أن الأيام من الشهود. ويظهر به أن كلمة «من» في قوله «منكم» ابتدائية لا تبعيضية، والشهداء هي الأيام، وقال سبحانه:

﴿ثم إليَّ مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إنَّ الله لطيف خبير﴾[2].

والبيان السابق عائد هٰهنا أيضاً وقال سبحانه:

﴿وأخرجت الأرض أثقالها وقال الانسان مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤٠.

(٢) سورة لقمان الآية: ١٦.

(٣) سورة الزلزلة الآية: ٥.

وفي الكافي عن الصادق (ع) قال: إن النهار إذا جاء قال: يا بن آدم اعمل في يومك هذا خيراً أشهد لك به عند ربك يوم القيامة، فإني لم آتك فيما مضى، ولا آتيك فيما بقي، وإذا جاء الليل قال مثل ذلك، وروي هذا المعنى ابن طاووس في كتاب محاسبة النفس عن الباقر والصادق (ع).

وروى الصدوق في العلل عن عبد الله الزراد قال: سال كهمس أبا عبد الله (ع)، فقال: يصلي الرجل نوافله في موضع أو يفرقها، فقال لا بل هٰهنا وهٰهنا فإنها تشهد له يوم القيامة.

ومن الشهداء القرآن والأعمال والعبادات، وسيأتي ملخص الكلام فيها في فصل الشفاعة ان شاء الله.

واعلم أن البرهان أيضاً يفيد ما مر من شهادة الشهود، فإن الأعمال لا تتحقق بينها وبين شيء من الموجودات نسبة، إلا وهي متحققة بين الذات وبين ذلك الموجود، فإن الأعمال من تنزلاتها ووجوداتها قائمة الذات بتلك الذوات. فببقاء الذات تبقى الصادرات عنها بحسب ما يتحقق بها من الوجود، وببقائها تبقى النسب التي إلى الأشياء، وببقاء النسب تبقى الأشياء ضرورة كون وجوداتها رابطة لا تتحقق إلا بطرفين، وبحياتها تحيي الجميع، وبحضورها عند الحق سبحانه وبين يديه تعالى بتمام ذاتها وشهادتها وبيانها ما عندها له سبحانه يفعل الجميع ذلك، والله العالم.

الفصل العاشر
في الحساب

من المعلوم أن الحساب وهو كشف المجهول العددي باستعمال الطرق الموصلة إليه، إنما يتأتّى بلحاظ ظرف العلم والجهل وأما إذا فرض نفس الواقع مع الغض عن العلم والجهل فلا موضوع لهذا المعنى الذي نسميه حساباً، وإنما الذي في الواقع والخارج هو ترتب النتيجة على المقدمات، والمعلول على العلة، فالوضع الذي هو: (٦ × ٨ - ٣ × ٦) يتدرج فيه باستعمال الأسباب والأعمال الحسابية للحصول على النتيجة وهي (٣٠) بالنسبة إلينا لجهلنا أولاً بذلك وتحصيلنا العلم ثانياً بالحساب، أن النتيجة هي الثلاثون. وأما ما في الخارج فإنما هو عدد مع عدد لا انفكاك بينهما ولا فصل أو ترتب النتيجة على تراكم أمور واقعية موجودة في الخارج ليس بينهما فرجة زمانية ولا فاصلة مكانية.

وعلمه سبحانه بالأشياء الواقعية حيث كان، عين تلك الأشياء الواقعية على ما تعطيه الأصول البرهانية دون الصور المنتزعة عن الخارج مثل علومنا الحصولية كان القول في علمه سبحانه عين القول في الأمور الواقعية، فحسابه سبحانه عين حساب الواقع، وهو ترتب نتائج الأمور عليها فيما كان هناك أثر مترتب، وقد أخبر سبحانه أن لكل شيء أثراً في جانبي السعادة والشقاوة يترتب عليه في الدنيا.

قال سبحانه:

﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[1].

---

(١) سورة يوسف الآية: ٩٠.

وقال:

﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾[1].

وقال:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء﴾[2].

وقال:

﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله﴾[3].

وقال:

﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾[4].

وقال:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[5]..

ومن هذا الباب قوله سبحانه:

﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾[6].

وقوله:

﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾[7].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وهي على كثرتها تفيد أن نتائج الأمور تتبعها لا محالة في الدنيا والآخرة، كما أن البرهان أيضاً يفيد ذلك.

---

(١) سورة يوسف الآية: ٥٦.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٩٦.
(٣) سورة الروم الآية: ١٠.
(٤) سورة الطلاق الآية: ٩.
(٥) سورة الزلزلة الآيتان: ٧ و ٨.
(٦) سورة الشورى الآية: ٣٠.
(٧) سورة التغابن الآية: ١١.

ثم ان الأمور ونتائجها لا توجد بنفسها ولا بإيجادها، بل بإفاضة منه سبحانه لوجودها فاستتباعها نتائجها استفاضتها منه سبحانه لنتائجها المترتبة عليها. كما أن ارتزاق المرزوقين استفاضتها منه سبحانه ما يديم به بقاءها من الوجود، فالحساب كالرزق بوجه، فلا تزال سحابة الفيض تشرب من بحر الرحمة وتمطر مطر الفيض على بحر الإمكان، فكل قطرة لاحقة تستمد بها سابقتها وهو الرزق، وترفع بها حاجتها التي تستحقها وتقتضيها وهو الحساب، فكما أن إفاضة الرزق لها دائم مستمر ضروري كما قال سبحانه:

﴿أنه لحق مثل ما انكم تنطقون﴾[1].

فكل الحساب بينها دائم مستمر ضروري.

وفي النهج سئل عليه السلام كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ فقال (ع): كما يرزقهم على كثرتهم. فقيل: فكيف يحاسبهم ولا يرونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يرونه. . . وهو أنفس كلام في هذا الباب.

وبالجملة فالأمور، ومنها الأعمال، لا تنفك عن حسابها عند تحققها في الخارج أدنى انفكاك قال سبحانه:

﴿والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[3].

إذ مع اختصاص الحكم به سبحانه وعدم وجود حاكم غيره يضاد بحكمه حكمه، ويدفع به أمره بنحو من الأنحاء بابطال وتعويق وتضعيف وانظار، لا يتصور لحكمه سبحانه بطء وتعويق وتأخير، ولا يمكن فيه مساءة ولا صعوبة ولا يسر ولا عسر ولا غيرها.

(١) سورة الذاريات الآية: ٢٣.
(٢) سورة الرعد الآية: ٤١.
(٣) سورة الأنعام الآية: ٦٢.

فهذه المعاني إذا أطلقت يراد بها حصول معانيها بالنسبة إلى إدراك المحاسبين بصيغة المفعول، كقوله سبحانه:

﴿ويخافون سوء الحساب﴾[1].

وقوله:

﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾[2].

وقوله:

﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[3].

وروى في المجمع عن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله ما أطول هذا اليوم؟ فقال ﷺ: والذي نفس محمد بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا.

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله (ع)، قال: لو ولي الحساب غير الله لمكثوا فيه خمسين ألف سنة من قبل أن يفرغوا، والله سبحانه يفرغ من ذلك في ساعة.

أقول وبهذين الخبرين يظهر معنى قوله تعالى:

﴿كان﴾ (الآية).

فيخفف ذلك على المؤمنين لأن وجوههم يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، فيرون الأمر على حقيقته وما أمر الساعة إلا كلمح البصر، ويطول على الكافرين والفاسقين، لأنهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون. فالاختلاف من جانب الناس وغيرهم، وأما بالنسبة إليه سبحانه فأمره واحد لا اختلاف فيه. وبالجملة فأمر الحساب كما عرفت جار دائماً، وأما اختصاص يوم القيامة بوقوع الحساب فيه فهو

---

(١) سورة الرعد الآية: ٢١.
(٢) سورة الطلاق الآية: ٨.
(٣) سورة المعارج الآية: ٤.

من قبيل اختصاصه في كلامه تعالى بخصال أخرى غير مختصة به ظاهراً كاختصاص الملك يومئذ لله، وبروز الناس يومئذ لله، وكون الأمر يومئذ لله وغير ذلك. وقد عرفت فيما مر معنى ذلك، فوقوع الحساب فيه هو ظهور النتيجة حقيقة بتمام المعنى، فهو ظهور نتيجة الخلقة ووصول الممكن إلى غاية سيره في سبيله من الله إليه، قال سبحانه:

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[1].

وقال:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[2].

وقال:

﴿وان إلى ربك المنتهى﴾[3].

ومن هنا يظهر أن الإنسان كلما قرب من طريق السعادة ملازماً للصراط المستقيم كان الحساب عليه يسيراً، فإنه أقرب إلى النتيجة المقصودة من الخلقة، قال سبحانه:

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾[4].

وكلما بعد عن الحق ونكب عن مستقيم الصراط كان الحساب عليه عسيراً فإنه أبعد عما أودع الله عز وجل في فطرته من نتيجة الخلقة وغاية الوجود، قال سبحانه:

﴿فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير﴾[5].

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٤٧.
(٢) سورة المؤمنون الآية: ١١٥.
(٣) سورة النجم الآية: ٤٢.
(٤) سورة الانشقاق الآية: ٨.
(٥) سورة المدثر الآية: ١٠.

وقال:

﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾[1].

وقال:

﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه﴾[2].

وينتهي الأمر من الطرفين إلى من لا حساب له ممن لا يليه إلّا ربه فلا عمل له، فلا كتاب، فلا حساب، وهم المخلصون المقربون، قال سبحانه:

﴿انهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾[3].

وممن لا مولى لهم فحبطت أعمالهم فلا كتاب لهم فلا وزن ولا حساب.

روي في المعاني عن الباقر (ع) قال: قال رسول الله ﷺ: كل محاسب معذب فقال قائل: يا رسول الله فأين قول الله: «فسوف يحاسب حساباً يسيراً». قال ﷺ: ذلك العرض يعني التصفح، أقول وهذا حديث أطبق الفريقان على رواية معناه واتفقوا على صحته.

وروى العياشي وغيره بطرق متعددة عن الصادق ﴿ع﴾ في قوله: «سبحانه ويخافون سوء الحساب» ان معناه الاستقصاءِ (والمداقة) وانه يحسب لهم السيئات ولا يحسب لهم الحسنات.

وممّا مر يتضح أمر السؤال وهو من توابع الحساب، فإن السؤال وهو استيضاع ما عند المسؤول من حقيقة الأمر، والأمر يومئذ يدور مدار تفريغ ما عند النفس بحسب الحقيقة من تبعاتها ولواحقها واذنابها التي اكتسبتها من السعادة والشقاوة، وتفريغ حسابها وتوفية نتيجته لها، قال سبحانه:

(١) سورة النبأ الآية: ٤٠.
(٢) سورة الحاقة الآية: ٢٥.
(٣) سورة الصافات الآية: ١٥٨.

﴿يوم تبلى السرائر﴾[1].

وهي مكامن النفوس، وقال سبحانه:

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿وان تبدوا ما في أنفسكم تخفوه يحاسبكم به الله﴾[4].

وما ورد أن الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿إلّا اللمم ان ربك واسع المغفرة﴾[5].

فمعنى النسخ هو التفسير، والبيان دون بيان غاية الحكم وانقضائها فان ذلك مختص بالشرائع والأحكام غير جائز في الحقائق، وقال سبحانه:

﴿فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون﴾[6].

وقال:

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾[7].

وقال:

﴿وقفوهم انهم مسؤولون﴾[8].

وآعلم أن هذه الآيات تعطي عموم السؤال والحساب لجميع الأعمال

---

(١) سورة الطارق الآية: ٩.
(٢) سورة الأنعام الآية: ٢٨.
(٣) سورة النساء الآية: ٤٢.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٨٤.
(٥) سورة النجم الآية: ٣٢.
(٦) سورة الحجر الآية: ٩٢.
(٧) سورة الأعراف الآية: ٦.
(٨) سورة الصافات الآية: ٢٤.

والنعم، وهو المحصل من جماعة الأخبار.

ففي نوادر الراوندي باسناده عن موسى بن جعفر (ع) عن آبائه (ع) قال: قال رسول الله ﷺ: كل نعيم مسؤول عنه يوم القيامة إلا ما كان في سبيل الله.

وفي أمالي المفيد، مسنداً عن ابن عيينة قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: ما من عبد إلا ولله عليه حجة اما في ذنب اقترفه واما في نعمة قصر عن شكرها.

وفي كتاب الحسين بن سعيد عن الصادق (ع): الدواوين يوم القيامة ثلاثة: ديوان فيه النعم، وديوان فيه الحسنات، وديوان فيه الذنوب، فيقابل بين ديوان النعم وديوان الحسنات فتستغرق عامة الحسنات وتبقى الذنوب والاخبار في هذه المعاني كثيرة.

وأجمعها معنى ما رواه الصدوق في التوحيد، عن ابن اذينة عن الصادق (ع)، وقال: قلت له جعلت فداك ما تقول في القضاء والقدر؟ قال: أقول إن الله إذا جمع العباد يوم القيامة سألهم عما عهد إليهم، ولم يسألوا عما قضي عليهم (الحديث).

نعم روى اصحابنا عن علي والباقر والصادق والرضا عليهم السلام في قوله سبحانه:

﴿ولتسألن يومئذ عن النعيم﴾.

أن المراد بالنعيم هو الولاية لا ما يرتفع به الحوائج الإنسانية من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها.

فعن الصادق (ع) انه قال لأبي حنيفة بلغني أنك تفسر النعيم في هذه الآية بالطعام الطيب والماء البارد في اليوم الصائف، قال: نعم. قال (ع): لو دعاك رجل واطعمك طعاماً طيباً، وسقاك ماءً بارداً، ثم امتن عليك به، إلى ما كنت تنسبه؟ قال إلى البخل. قال (ع): افبخل الله تعالى. قال: فما هو؟ قال (ع): حبنا أهل البيت.

وفي الاحتجاج عن علي (ع): في حديث، ان النعيم الذي يسأل عنه رسول الله ومن حل محله من اصفياءِ الله فان الله أنعم بهم على من اتبعهم من أوليائهم.

وفي المحاسن عن أبي خالد الكابلي، عن الباقر (ع)، في حديث بعد ذكر الآية قال (ع): انما تسألون عما أنتم عليه من الحق (الحديث).

والاعتبار العقلي يساعد هذا المعنى، فإن الولاية، وهي معرفة الله والتحقق بها حيث كانت غاية الخلقة لا غاية غيرها، فكل إفاضة انما تكون نعمة وملائمة للكمال والراحة إذا وقعت في طريق الغاية أو لو حظت من حيث صحة وقوعها في طريقها، لكنها بعينها إذا وقعت في طريق يضاد الغاية صارت نقمة، وإذا لم تقع في طريق أصلاً كانت لغواً باطلاً. فكل شيء نعمة من حيث إيصاله الإنسان إلى ساحة الولاية، وأما مع الغض عن ذلك فلا نعمة. فصح ان النعمة المطلقة هي التوحيد، والنبوة، والولاية، كما في بعض الروايات. وصح ان النعمة بالنسبة إلينا هي الولاية كما في بعض آخر (فافهم) والله الولي الحق.

الفصل الحادي عشر
في الجزاء

قال سبحانه:

﴿ليجزي الذين اسأوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى﴾[*].

ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار فيها آيات كثيرة جداً، وقد جعلها سبحانه أحد الدليلين على وقوع الحشر فقال:

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[1].

فإن الحكيم من حيث هو حكيم، كما يستحيل ان يفعل فعلاً لا غاية له ولا نتيجة متولدة من فعله كما هو مفاد الدليل الأول، كذلك يستحيل عليه ان يهمل أمر جماعة فيهم الصالح والطالح والظالم والمظلوم فلا يجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته.

ثم انك ترى انه سبحانه أقر النسبة بين العمل والجزاء؛ فالاحسان يجزى بالاحسان والإساءة تجازى بالإساءة، ثم جاوز وعده ووعيده مطلق الإحسان والإساءة فأيد خصوصيات في الإحسانات واساءات بحسب خصوصيات في الإعمال فأيد بذلك أن بين الأعمال وجزائها نسباً خاصة وارتباطات مخصوصة، ثم جاز كلامه سبحانه ذلك بان اخبر بالعينية والاتحاد بين العمل وجزائه قال سبحانه:

(*) سورة النجم الآية: ٣١.

(١) سورة ص الآية: ٢٨.

﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾[1].

فصدْر الآية يحكي عن النسبة المذكورة، ووسطها عن الاتحاد بين العمل والجزاء، وذيلها عن الجزاء العادل، وهو سبب النسبة والعينية المذكورتين، وما ذكرناه من معنى الحساب وحقيقته في الفصل السابق عائد ها هنا أيضاً إليه تعالى وقال سبحانه:

﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[2].

وقال:

﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[3].

وقال:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[4].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على ان ما يعمله الانسان من خير أو شر سيُرَدّ إليه بعينه.

ثم شرح سبحانه معنى هذه العينية فقال:

﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾[5].

فبين أن معصيتهم على كونها في هذه النشأة في صورة كتمان ما أنزل الله وشراء الثمن القليل بذلك، فهي بعينها متصورة في الباطن بصورة أكل النار كما ورد مثله في أكل مال اليتيم ظلماً، ثم أردف سبحانه ذلك بقوله:

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٦١.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٧٢.
(٤) سورة الزلزلة الآيتان: ٧ ـ ٨.
(٥) سورة البقرة الآية: ١٧٤.

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بـالمغفرة فـما أصبرهم عـلى النار﴾[1].

فبين أن هؤلاء بدلوا الهدى والمغفرة بهذا الضلال والعذاب، والهـدى والمغفرة مرتبان على الاستقامة والتقوى كما ان أكل النـار والضلالـة والعذاب تتـرتب على الكتمـان والشراء المـذكورين فـالتعرض منـه سبحانـه بالتبـديل فيما يترتب عـلى المعاصي دون ظاهر نفس المعاصي وتبديله سبحانـه أكل النـار وأخواتـه بمعنى عام وهـو الضلال والعـذاب بيان منـه تعالى لكـون تبديـل صورة الأفعـال مـطرداً في جانبي الطاعات والمعاصي جميعاً (فافهم) وتدبر.

ثم بين سبحانه ذلك في المؤمنين خاصة فقال:

﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[2].

وقال:

﴿أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه﴾[3].

وهو روح الإيمان وقال:

﴿ولكن جعلناه﴾.

أي النور المنزل على رسول الله.

﴿نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾.

وهو روح القدس، وقال:

﴿يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم﴾[4].

وقال:

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٧٥.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٧.
(٣) سورة المجادلة الآية: ٢٢.
(٤) سورة الحديد الآية: ٢٨.

﴿لهم أجرهم ونورهم﴾[1].

إلى غير ذلك من الآيات.

وبالجملة فصُوَر علومهم وأخلاقهم وأعمالهم وأنوار الهية طاهرة موهوبة تطهرهم من الأرجاس وتنجيهم من الظلمات فيشاهدون به عظمة الله وكبرياءه وملكوت السموات والأرض، طوبى لهم وحسن مآب.

ثم بيّن ذلك في الكافرين والفاسقين، فقال: (عز من قائل).

﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾[2].

وقال:

﴿والذين كذبوا بآياتنا صمٌّ وبكم في الظلمات من يشاء الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾[3].

وقال:

﴿انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾[4].

وقال:

﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾[5].

وقال:

﴿ومن يَعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾[6].

وقال:

﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾[7].

---

(١) سورة الحديد الآية: ١٩.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٧.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٣٩.

(٤) سورة مريم الآية: ٨٣.

(٥) سورة الأنعام الآية: ١٢١.

(٦) سورة الزخرف الآية: ٣٦.

(٧) سورة الأنعام الآية: ١٠٨.

إلى إن قال:

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾[1].

وقال:

﴿فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كانما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾[2].

وقال:

﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فاغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[3].

وقال:

﴿والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾[4].

فاخبر سبحانه ان الشرك بالله والمعاصي على اختلاف تصوراتها توجب خروجهم من النور إلى عالم الظلمات، فيضلهم الله عز وجل في الظلمات، ويصمهم، ويبكمهم، ويرسل الشياطين إليهم، وهم قرناؤهم إلى يوم القيامة، فيقطب أبصارهم وأفئدتهم فلا يقصدون إلا السراب الباطل، ولا يقدرون ان يروموا الحق ويتناولوه كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، بل الأغلال في أعناقهم والسدود من بين أيديهم ومن خلفهم وهم المغشيون، وليس كل ذلك إلّا صور الأعمال ونتيجة الحساب فيما يعتبر فيه ثواب وعقاب.

وكثير من الأخبار، يشهد بذلك؛ فعن رسول الله ﷺ: كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون. (الخبر) وهو في جوامع الكلم وهو مع قوله ﷺ: الناس

(١) سورة الأنعام الآية: ١١٠.
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.
(٣) سورة يس الآية: ٩.
(٤) سورة النور الآية: ٣٩.

معادن كمعادن الذهب والفضة (الخبر). يعطيان علم مبدأ الانسان ومعاده بالاستيفاء.

وفي الكافي عن الصادق (ع) قال: إذا وضع الميت في قبره مثل له شخص فقال: يا هذا كنا ثلاثة: كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلك فخلفوك وانصرفوا عنك، وكنت عملك فبقيت معك. أما إني كنت أهون الثلاثة عليك.

وعن البهائي رحمه الله قال: روى أصحابنا عن قيس بن عاصم قال: وفدت مع جماعة من بني تميم على النبي ﷺ، فدخلت عليه. وعنده الصلصال بن الدلهمس فقلت: يا رسول الله عظنا موعظة ننتفع بها فانا قوم نعير[1] في البرية فقال رسول الله يا قيس ان مع العز ذلاً وان مع الحياة موتاً وان مع الدنيا آخرة وان لكل شيء حسيباً وان لكل أجل كتاباً، وإنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وأنت ميت، فان كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه فلا تجعله إلا صالحاً، فانه ان صلح أنست به وان فسد لا تستوحش إلّا منه وهو فعلك. (الخبر).

والأخبار في تمثيل الصوم، والصلاة، والزكاة، والولاية، والصبر، والرفق، والقرآن، والتسبيح، والتهليل، وسائر العبادات والمعاصي، بصور تعطيها معانيها أكثر من ان تحصى، والبرهان المذكور سابقاً يعطي ذلك.

وأيضاً الثواب والعقاب إنما هما على الطاعة والمعصية أي موافقة الأمر ومخالفته، وهو كما ذكرناه في رسالة الانسان في الدنيا أمر اعتباري وهمي والثواب والعقاب الآجلان من الأمور الحقيقية الواقعية والنسبة الرابطة بين الأمر والاعتباري والحقيقي ممتنعة إلا بكون الآخر الاعتباري مكتنفاً بأمر حقيقي، وحيث ان الانسان بثبوته يثبت الطاعة والمعصية. ولو فرضنا رفع ما عداه وبارتفاعه يرتفعان، ولو فرضنا وضع ما عداه فهذا الأمر الحقيقي مع الانسان،

(١) عَيرَ = عار = ذهب وجاء متردداً.

وهو مجموع النفس والبدن. والبدن يتبدل بالتدريج قطعاً مع بقاء صفة الطاعة والمعصية والسعادة والشقاوة، فالذي يدور مداره الأمر هو الروح الذي هو الانسان، فمع الانسان معنى هو المصحح للنسبة المذكورة، وهو المعاني المخصوصة من خصوصيات الطاعات والمعاصي.

الفصل الثاني عشر
في الشفاعة

قال سبحانه:

﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعةٌ ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾[1].

وقال:

﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾[2].

وقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾[3].

تنفي الآيات قبول شفاعة من نفس في نفس، غير أن هناك آيات أخر تخصص هذا العموم وتفسره كما تخصص عموم عدم النصر وتفسره، قال سبحانه:

﴿يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم﴾[4].

وقال:

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٢٣.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥٤.

(٤) سورة الدخان الآية: ٤١.

﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾[1].

وقال:

﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن لـه﴾[2].

فبين سبحانه أن الشفاعة يومئذ لا تقع ولا تنفع إلا بإذن للشافع في شفاعته وللمشفوع في الشفاعة له، وقد فسَّر الإذن للشافع بقوله:

﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قـولاً﴾[3].

فإذنه سبحانه رضاه بقوله؛ أي كون قوله وهو شفاعته مرضياً، وقال سبحانه:

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صـوابـاً﴾[4].

فالقول المرضي هو القول الصواب وقد أسلفنا في فصل الشهادة أن مرجع ذلك إلى انتهاء أعمال العاملين ولحوقها بهذا الذي اذن له القول الصواب، وحضورها له ووساطته في إفاضة الفيوضات الالهية لهم ويرجع ذلك إلى تكمين الحق سبحانه للشافع من شهادة حقائق الأعمال والعلم بها كما قال سبحانه:

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾[5].

وبالجملة فإذن سبحانه في قول هو الرضا عنه، ومن المعلوم ان الرضا لا يتعلق إلا بكمال الشيء من حيث انه كمال فالقول المرضى عنه هو كمال القول، وهو كونه صواباً، فالمأذونون مرضيون في قولهم، صائبون في علمهم، مرضيون في

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة سبأ الآية: ٢٣.
(٣) سورة طه الآية: ١٠٩.
(٤) سورة النبأ الآية: ٣٨.
(٥) سورة الزخرف الآية: ٨٦، فقد أخذ سبحانه في تملك الشافع للشفاعة قيدين وهما العلم وكون الشفاعة بالحق دون الباطل والظاهر أن المراد بالشهادة هو التحمل دون الأداء وان كان مرجعهما واحداً منه.

ذاتهم، إذ القول من آثار الذات ولا يستكمل أثر من آثار الذات إلا بعد استكمال نفسه التي هي المبدأ وهو ظاهر دون العكس؛ إذ الذات يمكن ان يقع مرضياً لطهارة محتدة، وخلوص عقائده ولا يقع مرضياً في أفعاله وآثاره لورود مانع حاجب.

والحاصل ان الشافعين هم الذين رضي الله عنهم، ورضي قولهم، أي شهد كمالهم، وكمال قولهم لا يشوبه نقص ولا خطأ، أي ان علمهم علمه سبحانه لم يختلط بشبهات الأوهام وخطأ الأهواء، فان العلم فيما يحيط به ويصدق هو له سبحانه قال تعالى:

﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[1].

ولذلك فان النبيين وهم السابقون من المرضيين ينفون العلم عن أنفسهم، إذا خاطبهم الله سبحانه:

﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب﴾[2].

مع ان العلوم التي معهم أكثر وأصدق من علوم غيرهم بلا شك، فهؤلاء باقون على طهارة الذات الأصلية موفون بعهدهم الذي واثقوه مع ربهم، قال سبحانه:

﴿لا يملكون الشفاعة إلاَّ من اتخذ عند الرحمن عهده﴾[3].

وبالجملة فالشافعون هم المرضيون ذاتاً وأعمالاً.

ومثل ذلك في الذات مأخوذ في جانب المشفوعين، قال سبحانه:

﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾[4].

فالارتضاء مطلق وليس ناظراً إلى الاعمال، فإن الشفاعة إنما هي فيها،

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة المائدة الآية: ١٠٩.
(٣) سورة مريم الآية: ٨٧.
(٤) سورة الأنبياء الآية: ٢٨.

فالارتضاء انما تعلق بهم لا بأعمالهم، أي ان نفوسهم طاهرة بالإيمان ويشهد به أيضاً قوله سبحانه:

﴿ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم﴾[1].

يشعر بأن الايمان وهو مقابل الكفر مرضى له.

ثم انه سبحانه قال:

﴿فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾.

فبان بذلك أن نفع الشفاعة هو تبدل السيئات التي توجب الفسق بغيرها من الحسنات بسببها حتى يحصل الرضا رضى الرب، وقد وعد سبحانه مغفرة الصغائر من المعاصي لمن اجتنب الكبائر منها، فقال:

﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ان ربك واسع المغفرة﴾[3].

فلم يبق لسخط الرب سبحانه وعدم رضاه إلا الكبائر، فهي المستحق بها للشفاعة، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله فيما رواه الفريقان قوله ﷺ: إنما شفاعتي[4] * لأهل الكبائر من أمتي أو ما في معناه، فالشفاعة إنما توجب تبدل هذه الكبائر، قال سبحانه:

﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم

---

(١) سورة الزمر الآية: ٧.

(٢) سورة النساء الآية: ٣١.

(٣) سورة النجم الآية: ٣٢.

(٤) * ويظهر مما قدمناه من القول في باب الشهادة من عموم شفاعته ﷺ ان المراد بالشفاعة هو الشفاعة الخاصة في الحديث أو أن قوله من أمتي متعلق بقوله شفاعتي منه.

حسنات﴾[1].

فالشفاعة كما ترى تحل محل العمل الصالح، وقال سبحانه:

﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[2].

فالشفاعة كالعمل الصالح تفيد رفع الكلم الطيب وهو الايمان إلى الله سبحانه، فالشفاعة توجب لحوق المذنبين من المؤمنين فقط بالصالحين منهم، فمثل الشفاعة كمثل البدن إذا اعتراه مرض أو قرحة مخطورة فان المزاج إذا كان قوياً والطبيعة البدنية سالمة أصلحت الصحة ودفعت المرض عنه، وإلا احتيج إلى علاج بالضد ودواء يبطل فعل المرض وينصر الطبيعة في اعادتها صحة البدن إليه، وتبديلها المواد الفاسدة المجتمعة فيه إلى الصالحة الملائمة له، فالفاعل للصحة على كل حل هي الطبيعة، غير انها مستقلة في فعلها حيناً ما ومحتاجة إلى ناصر ينصرها حيناً ما، ولذلك فانه سبحانه يكرر القول:

﴿بان لكل نفس ما كسبت وعليها مما اكتسبت﴾.

واصرح من ذلك محلاً قوله سبحانه:

﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين﴾[3].

فبين أولاً انه سيلحق ذريتهم بآبائهم في درجاتهم، لا في أصل الرحمة لقوله:

﴿وما التناهم من عملهم من شيء﴾ (الآية).

ثم أردفه بقوله تعالى:

﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ (الآية).

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٧٠.

(٢) سورة فاطر الآية: ١٠.

(٣) سورة الطور الآية: ٢١.

فعد هذا اللحوق من الكسب مع ان أعمالهم دون ذلك، فعلمنا به أن الايمان، يوجب اتصالاً ما من الداني بالعالي، وإذا حجبهما من الاستواء في الدرجات حاجب مانع من القصور، أصلحه الايمان وارتفعا جميعاً إلى درجة واحدة، وهذه حال الشفاعة توجب لحوق المشفوع بالشافع ثم اصلاح أعماله السيئة وجعلها حسنة بذلك.

وفي قوله:

﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ (الآية).

اشارة إلى ذلك، إذ لولا أصل محفوظ بين المبدل والمبدل منه، كان التبديل اعداماً للمبدل وايجاداً للمبدل منه.

واعلم ان المغفرة في ذلك كالشفاعة، وسيأتي في فصلي الاعراف والمغفرة وما يتبين به هذا المعنى (فصل تبين).

ومن هنا يتبين ان الشفاعة نوع تصرف في الاعمال بتبديلها، ولذلك خصه سبحانه بنفسه في قوله:

﴿ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾[1].

وهذا يؤيد ما ذكرناهُ من مقام الشافع، ان الشفاعة لا تتم إلا بكمال القرب منه سبحانه ويظهر ذلك أيضاً من قوله:

﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾[2].

والتفزيع عن القلب كشف الفزع وهو الدهشة والصعقة التي توجب غيبوبته عن نفسه، قوله سبحانه:

---

(١) سورة السجدة الآية: ٤.

(٢) سورة سبأ الآية: ٢٣.

﴿ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد اذنه﴾[1].

إذا ضم إلى الآية الأولى والسياقان واحد، أفادت أن تمليكه تعالى الشفاعة لغيره يتحقق بعد الإذن، أي بعد الاذن يتحقق كون فعل الشافع في شفاعته وقوله فعل الله سبحانه، واصرح منه قوله:

﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾[2].

فالإذن هو الموجب لهذا الذي نسميه كمال القرب وهو الجاعل فعل الشافع فعله سبحانه وقد مر تفسير الإذن بالرضا، وقد قال سبحانه أيضاً:

﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله﴾[3].

فبينّ به أن الذي نسميه شفاعة قائم بالرحمة، فهو رحمته سبحانه كما يستشم أيضاً من قوله سبحانه:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾[4].

ثم انه سبحانه قال لرسوله:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وهو كلام مطلق يعطي ان له ﷺ من الله سبحانه مقاماً غير مقام الشفاعة ارفع منها، وهو مقام الاذن الذي يحصل بعده وبسببه الشفاعة. فهو ﷺ شفيع الشفعاء كما مر وإنه ﷺ شهيد الشهداء.

واعلم أن مساق هذه الآية في تفضيله ﷺ على العالمين غير مساق قوله:

﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾[5] (الآية).

---

(١) سورة يونس الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.
(٣) سورة الدخان الآية: ٤١.
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٥٦.
(٥) سورة الجاثية الآية: ١٦.

فان الظاهر منها ان تفضيلهم انما هو بجمع الآيات الباهرات لهم، وهو كذلك وليس تفضيلاً في قرب التقوى من الله تعالى، ويدل على ذلك النقمات والسخطات ونزول الرجز بهم، وليس تفضيل أمة على العالمين كتفضيل الواحد على العالمين وخاصة بالرحمة التي هي الواسطة التامة بين الله سبحانه وبين الموجودات، وهي شيء في البين وليس بشيء في البين فهو سبحانه يخلق كل شيء بذاته، ويرزق كل شيء بذاته، ويبدأ ويدبر ويعيد كل شيء بذاته، ويفعل ذلك كله برحمته.

وفي هذا المعنى خطابه تعالى له ﷺ بقوله:

﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾[1].

ولفظ يبعث كأنه تضمن معنى الاقامة وهو كلام مطلق لم يعترضه في كلامه سبحانه تقييد، فهو مقام محمود بكل حمد من كل حامد، فهو مقام فيه كل جمال وكمال لاقتضاء الحمد، ذلك فكل جمال وكمال مترشح من هناك، وقد قال سبحانهِ:

﴿الحمد لله رب العالمين﴾[2].

فخصَّ كل حمد من كل حامد بنفسه، فالمقام المحمود مقام متوسط بينه سبحانه وبين الحمد فهو كالرحمة شيء وليس بشيء، وهي المسماة بالولاية الكبرى، وقال سبحانه:

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[3].

وهذا أيضاً كلام مطلق، ومن المعلوم أن العطية المطلقة منه سبحانه هي الرحمة المطلقة، فيرجع مضمون الآية إلى الآيتين وهما:

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٧٩.
(٢) سورة الفاتحة الآية: ٢.
(٣) سورة الضحى الآية: ٥.

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ ﴿وعسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾.

وتزيد عليهما: ﴿بالرضى﴾ ولم يقل سبحانه: حتّى ترضى، فإن العطية هذه العطية غير تدريجية بتواتر الأمثال وتعاقب الجزئيات، ههنا كلام كثير لكنه ارفع سطحاً مما جزينا عليه في هذه الرسالة.

فالمحصل من جميع ما مر أن محمداً صلى الله عليه آله، على ان له الشفاعة للمذنبين من أمته له مقام الاذن في الشفاعة، والأخبار في ذلك كثيرة متضافرة.

فقد روى القمي في تفسيره عن الباقر (ع) في حديث ثم قال ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة (الحديث).

وروى هذا اللفظ في المحاسن عن الصادق (ع).

وروى العياشي في تفسيره عن الصادق (ع) في حديث طويل ثم قال أبو عبد الله (ع) ما من نبي من لدن آدم إلى محمد إلاّ وهم تحت لواء محمد ﷺ. (الحديث).

وروى القمي في تفسيره عن سماعة عن الصادق (ع) قال سألته عن شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، قال: يلجم الناس يوم القيامة العرق ويرهقهم الفلق فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا عند ربك، فيقول: إن لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح، فيأتون نوحاً فيردهم إلى من يليه، ويردهم كل نبي إلى من يلي حتى ينتهوا إلى عيسى، فيقول عليكم بمحمد ﷺ، فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول: انطلقوا فينطلق بهم إلى باب الجنة ويستقبل باب الرحمن، ويخر ساجداً فيمكث ما شاء الله فيقول الله عز وجل ارفع رأسك واشفع تشفع، وسل تعط، وذلك قوله عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً.

وروى العياشي في تفسيره ما يقرب منه، وهذا المعنى وارد في انجيل برنابا بنحو أبسط فيها بشر به المسيح عيسى بن مريم (ع) بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وروى فرات بن إبراهيم في تفسيره عن بشر بن شريح قال قلت لمحمد بن علي (ع) أية آية في كتاب الله ﴿أرجى﴾ قال (ع): ما يقول فيها قومك، قلت يقولون:

﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾[1].

قال (ع): لكنا أهل بيت لا نقول ذلك، قال: قلت فأيّ شيء تقولون فيها: قال: نقول ولسوف يعطيك ربك فترضى، الشفاعة والله الشفاعة والله الشفاعة.

---

(١) سورة الزمر الآية: ٥٣.

الفصل الثالث عشر
في أقسام الشافعين
(منهم الأنبياء والأولياء من البشر
وقد سبق الكلام فيه. ومنهم الملائكة)

قال سبحانه:

﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾[1].

إلى غير ذلك من الآيات.

ومنهم المؤمنون، قال سبحانه:

﴿وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾[2].

فقد استشعروا ان هناك صديقاً حميماً ينفع البعض لمكان قولهم ﴿لنا﴾ (الآية). ويظهر منه أن الشافع والحميم إنما ينفع المؤمنين.

وفي الكافي عن الباقر (ع) ان الشفاعة لمقبولة، وما تقبل في الناصب، وإن المؤمن ليشفع جاره وماله حسنة فيقول: يا رب جاري كان يكف عني الأذى فيشفع فيه، فيقول الله تبارك وتعالى:

(١) سورة النجم الآية: ٢٦.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ٩٩ - ١٠٢.

﴿انا ربك وانا أحق من كافى عنك﴾.

فيدخله الله الجنة وما له من حسنة، وان ادنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً فعند ذلك يقول أهل النار: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم، والروايات في هذا المعنى كثيرة.

ومن الشفعاء: القرآن والأمانة، والرحم عدت من الشفعاء في الروايات: ففي فردوس الديلمي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الشفعاء خمسة: القرآن، والأمانة، والرحم، ونبيكم، وأهل بيت نبيكم.

أقول ولعل شفاعة الثلاثة الأول، يستفاد من قوله سبحانه في وصف كتابه: ﴿هدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[1].

وقد قال سبحانه:

﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله﴾[2].

وقوله سبحانه:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾[3].

فبين سبحانه أن غاية عرض الأمانة على الانسان وتحمله لها هو التوبة على المؤمنين، والعذاب على المنافقين والمشركين بسببها، وهي الشفاعة، وقد فسرنا الآية سابقاً بالولاية، ولا تنافى وذلك لأن المأخوذ في كلامه سبحانه الأمانة دون الولاية، فهو أخذ الخاص من العام، وانطباقه به. وقوله سبحانه:

(١) سورة النحل الآية: ٨٩.

(٢) سورة الدخان الآية: ٤١.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٧٢.

﴿انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ها هنا حميم﴾[1].

والحميم هو القريب ذو الرحم والدليل على شفاعته قوله تعالى: ﴿لـه﴾ (الآية).

وفي الكافي عن سعد الخفاف عن الباقر (ع) انه قال: يا سعد تعلموا القرآن فان القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليه الخلق، ثم ذكر (ع) أنه يأتي صف المسلمين، ثم صف الشهداء، ثم الانبياء، ثم الملائكة، وكل يحسب انه منهم، ثم يشفع فيشفع، ويسأل فيعطى، وفي آخره قال سعد قلت جعلت فداك يا أبا جعفر وهل يتكلم القرآن؟ فتبسم (ع) ثم قال: رحم الله الضعفاء من شيعتنا انهم أهل تسليم، ثم قال نعم يا سعد! والصلاة تتكلم ولها صورة وخلق، تأمر وتنهى. قال سعد: فتغير لذلك لوني وقلت هذا شيء لا أستطيع التكلم به في الناس، فقال أبو جعفر (ع): وهل الناس إلا شيعتنا فمن لم يعرف بالصلاة فقد أنكر حقنا ثم قال: يا سعد اسمعك كلام القرآن، قال سعد فقلت بلى صلى الله عليك، فقال: إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، فالنهي، كلامُ الفحشاء والمنكر رجال، ونحن ذكر الله ونحن أكبر (الحديث).

وهو مشتمل على معانٍ جمة يستفاد بها أخرى، والذي يرتبط بما نحن فيه، ان المعاني التي تشترك في اللفظ مع المعاني والأحوال الموجودة في الأحياء كالأمر، والنهي، والنفع، والشفاعة، وغيرها، ستتمثل في البرزخ بصورها ويتحقق في الحشر بحقيقتها، ولمزيد البيان موضع آخر على انها مستفادة من البرهان المذكور سابقاً، وها هنا روايات أخر متفرقة في أبواب المعارف والعبادات.

ومن الشفعاء الأعمال الصالحة، قال سبحانه:

---

(١) سورة الحاقة الآية: ٣٥.

﴿الا من تـاب وآمن وعمـل عمـلاً صـالحـاً فـاولئـك يبـدل الله سيئـاتهم حسنات﴾[1].

فقد مر ان معنى الشفـاعة تبـديل سيئـة المذنب بـالحسنة، لقرب بين الشافع والمشفوع له، والـرواية السـابقة في شفـاعة القـرآن تعطي معنى كليـاً في شفاعـة الأعمال.

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٧٠

الفصل الرابع عشر
في الأعراف

قال سبحانه:

﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾[1].

أعراف الحجاب: أعاليه، والأعراف: التلال المرتفعة من كثبان الرمل، واتصال الأعراف في الآية الشريفة بالحجاب، يؤيد المعنى الأول وكون الرجال عليها يؤيد المعنى الثاني. لكن لا مغايرة؛ فالحجاب ما يحجب شيئاً عن شيء فهؤلاء الرجال في مقام عال مرتفع مطل على الفريقين؛ أهل الجنة وأهل النار، مشرف على المقامين: الجنة والنار، ولذلك كانوا على الاعراف ليعرفوا كلاً بسيماهم وقد وصف سبحانه الأمر بلسان آخر في قوله:

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾[2].

فقوله:

﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾.

كقوله في ذيل آية الأعراف:

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٦.

(٢) سورة الحديد الآية: ١٣.

الله قالوا إن الله حرمهما على الكفرين﴾[*].

واختصاص المنافقين بالباب لمكان نفاقهم واشتراكهم مع المؤمنين في ظاهر أمرهم، فيعذبون من ظاهر الحجاب من قبل الباب.

وبالجملة فقد بين سبحانه ان هذا الحجاب والسور شيء واحد ذو ظاهر وباطن، وان الرحمة للفائزين في باطنه، وان العذاب للهالكين في ظاهره، فكأنهم لو جازت أنظارهم ظاهره أصابوا النعيم وغشيتهم الرحمة، وكأنّ المؤمنين والكافرين ليس قبلهم إلا شيء واحد وانما الاختلاف من ناحية إدراكهم كحالهم في الدنيا، وهو السبيل إلى الله سلكه المؤمنون في الدنيا صراطاً مستقيماً، وانحرف فيه غيرهم. ولذلك قال سبحانه، قبل آية الاعراف:

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالأخرة كافرون﴾[1].

فالسبيل واحد وهو لله وإلى الله، سلكه سالك بالاستقامة وآخر قصده عوجاً ومنحرفاً، وهذا المعنى مكرر الورود تصريحاً وتلويحاً في القرآن، قال سبحانه:

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾[2].

وقال:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾[3].

(*) سورة الأعراف الآية: ٥٠.

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٥.

(٢) سورة الأحقاف الآية: ٣.

(٣) سورة النور الآية: ٣٩.

قال:

﴿فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العمل ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾[2].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً يمنعنا عن الاستقصاء فيها وبيانها ما شرطنا على أنفسنا في صدر الرسالة من الإختصار.

ومن أبلغها في هذا الباب قوله سبحانه:

﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾[3].

وقد مر أن النعمة في هذه الآية هي الولاية وهي السبيل إلى الله ويقابله الكفر:

﴿وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾[4].

فغاية هؤلاء البوار لجمودهم على الظاهر واعراضهم عن الباطن، والظاهر بائر والباطن ثابت قاطن كما يشير إليه قوله سبحانه:

﴿وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم﴾[5].

وقوله:

﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[6].

---

(١) سورة النجم الآية: ٣٠.
(٢) سورة يونس الآية: ٨.
(٣) سورة إبراهيم الآية: ٢٨.
(٤) سورة إبراهيم الآية: ٢٩.
(٥) سورة يونس الآية: ٢.
(٦) سورة القمر الآية: ٥٥.

وقوله:

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾[1].

وقوله:

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾[2].

فغاية المؤمنين هو محل الصدق والحق ليس فيه لغو ولا كذب بخلاف غيرهم.

وكيف كان، فأصحاب الأعراف هم المهيمنون على المكانين، المشرفون على الفريقين وليست هذه الكثبان كثبان رمل من مادة أرضنا، فقد قال سبحانه في وصف الأرض:

﴿يومئذ لا ترى فيها عوجاً ولا امتا﴾.

بل انما هو مقامهم المرتفع عن ساحة أهل الجمع فهم غير محضرين، فهم المخلصون الذين حفظهم الله سبحانه من صعقة النفخ وفزع اليوم ومقامهم الحجاب وفيه الرحمة التي وسعت كل شيء والنار التي أحاط بأهلها سرادقها وهو المستشعر بقوله تعالى:

﴿فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين﴾.

ولم يقل سبحانه:

﴿فأذن بينهم مؤذن كما لا يخفى وهم الحاكمون يوم القيامة﴾.

قال سبحانه:

﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾[3].

---

(١) سورة الواقعة الآية: ٢٥.

(٢) سورة النبأ الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٤٩.

وهي الجنة كما مر وكما يدل عليه قوله:

﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحـزنون﴾[1].

وهم أصحـاب الـروح المـأذون لهم في الكـلام والقـول الصـواب، في قـولـه سبحانه:

﴿يوم يقـوم الروح والملائكـة صفاً لا يتكلمـون إلاّ من أذن له الـرحمن وقال صواباً﴾[2].

وقد فصلنا القول في معنى الروح وايمانه وعلمه في رسالة الانسان قبـل الدنيـا في قوله سبحانه:

﴿وكـذلك أوحينـا إليك روحـاً من أمـرنـا مـا كنت تـدري مـا الكتـاب ولا الأيمان﴾[3].

فهم، أعني أصحاب الأعراف، هم المعنيون ظاهراً بقوله سبحانه:

﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الـذل ينظرون من طـرف خفي وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾[4].

فقد قضوا بخسرانهم.

وهم أيضاً المعنيون بقوله تعالى:

﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كانـوا يؤفكون وقـال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾[5].

فـزعمهم ذلك لما قيدوا في الـدنيا فلم يتسـع انظارهم بـأزيد من أن يـدركوا

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٩.
(٢) سورة النبأ الآية: ٣٨.
(٣) سورة الشورى الآية: ٥٢.
(٤) سورة الشورى الآية: ٤٥.
(٥) سورة الروم الآية: ٥٦.

ساعة من دهرهم واقعون فيها ففاتهم ما كانوا عليه قبل النزول في الدنيا، وما سيكونون عليه بعد الارتحال من الدنيا، ووقعوا فيها بحسب سيطرة الزمان لا تزال ساعة تبطن وساعة تظهر، فهم يقسمون حين البعث ما لبثوا غير ساعة، وهذا الوهم الشبيه بالحقيقة قد قرره سبحانه بقوله:

﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ﴾[1].

وقوله:

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فسئل العادين قال ان لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾[2].

ولذلك فليس قولهم وقسمهم على ما يقولون ويدعون تقليلاً منهم لمدة مكثهم في الأرض بالنسبة إلى البقاء الأبدي الذي شاهدوه حين البعث، ولذلك أردف ذلك بقوله:

﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾.

وقول أولي العلم والإيمان: لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث كأنه إشارة إلى قوله:

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم﴾.

وقد مر: معنى الآية في الكلام في الأجل والموت، وإذ كان اللبث وانتهاؤه مفروغاً منه اردفوه بقولهم فهذا يوم البعث وهو النتيجة، وقالوا ولكنكم كنتم لا تعلمون بهذا الانتهاء والتحديد، وان الساعة كلمح البصر أو هو أقرب وان جهنم لمحيطة بالكافرين.

واعلم ان صدور هذه الدعوى الباطلة من المبعوثين. ثم ظهور بطلانها لهم وأمثال ذلك، كالمخاصمات التي تقع بين الضعفاء والمتكبرين والأتباع والمتبوعين

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٣٥.

(٢) سورة المؤمنون الآية: ١١٤.

يوم القيامة على ما حكاه سبحانه عنهم، لا ينافي ما مر من ان اليوم يوم تظهر فيه الحقائق وترتفع فيه الحجب، فان الظهور بنفسه يتحقق عن خفاء وينحل إلى مراتب غير أن الأمر طويل عسير عند بعض، وقليل نزر يسير عند آخرين.

والأخبار الواردة في الباب تؤيد ما مر من المعاني؛ فقد روى العياشي عن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي (ع)، أكثر من عشر مرات: يا علي إنك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة والنار لا يدخل الجنة إلاَّ من عرفكم وعرفتموه ولا يدخل النار إلاَّ من انكركم وانكرتموه.

وروى القمي في تفسيره عن الصادق (ع) كلُّ أمة يحاسبها إمام زمانها ويعرف الائمة أولياءهم واعداءهم بسيماهم[1] وهو قوله:

﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمروا إلى الجنة بلا حساب ويعطوا اعداءهم كتابهم بشمالهم فيمروا إلى النار بلا حساب﴾.

وروى في الكافي عن أمير المؤمنين (ع) في قوله تعالى:

﴿وعلى الأعراف رجال﴾ (الآية).

ومن المحتمل ان يرجع (ع) الضمير في سيماهم إلى قوله: «رجال» و «كلا» جميعاً.

وروى القمي عن الباقر (ع) أنه سئل عن أصحاب الأعراف، فقال: انهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم الأعمال، وانهم لكما قال الله عز وجل أقول، يشير (ع) إلى قوله:

---

(١) وكأنهم المراد فاعلاً للفعل المجهول في قوله سبحانه يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام الآية فهو سبحانه لا يخفي له منهم شيء والمجرمون في شغل عن المعرفة منه.

﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم﴾[1] (الآية).

وفي الجوامع عن الصادق (ع): الأعراف: كثبان بين الجنة والنار يوقف عليها كل نبي وكل خليفة مع المذنبين من أهل زمانه، كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سبق المحسنون إلى الجنة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى اخوانكم المحسنين قد سبقوا إلى الجنة فيسلم عليهم المذنبون، وذلك قوله تعالى سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ان يدخلهم الله اياها بشفاعة النبي والإمام، وينظر هؤلاء إلى النار فيقولون: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، وينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء رجالاً من أهل النار ورؤساء الكفار يقولون لهم مقرعين؛ ما أغنى عنكم جميعكم واستكباركم هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، اشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستضعفونهم ويحتقرونهم بفقرهم ويستطيلون عليهم بدنياهم، ويقسمون ان الله لا يدخلهم الجنة ادخلوا الجنة، يقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المستضعفين عن أمر من أمر الله عز وجل لهم بذلك ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، أي لا خائفين ولا محزونين.

أقول وخصوصيات هذا الحديث مستفادة من خصوصيات آيات الأعراف والأخبار في هذه المعاني كثيرة مروية في تفسيري القمي، والعياشي، وفي الكافي، والبصائر، والمجمع، والاحتجاج.

والبرهان المذكور سابقاً ربما استفاد منه هذا الموقف، وهو وصل قوم إلى مقام ينشعب منه مقام الفريقين ولحوق الضعفاء والمتوسطين بهم، وبه يظهر أن الأعراف ليس موقفاً ذا مرتبة واحدة بل ذو مراتب ولذلك لا نرى تصريحاً منه سبحانه ان المستضعفين على الأعراف كالرجال الذين يحكمون فيها وإنما المفهوم أنهم عندهم يشيرون إليهم ويخاطبونهم ويأمرونهم ويؤمنونهم.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٤٦.

الفصل الخامس عشر
في الجنة

بسط الكلام فيها وشرح ما تضمنته الآيات والأخبار على كثرتها فيها أوسع من مجال هذه الرسالة، فقد وردت في كتاب الله تعالى في وصف الجنة ما يقرب من ثلاثمئة آية، وذكرُها مطَّرد في جميع سور القرآن إلّا عشرين سورة هي؛ سورتا: الممتحنة، والمنافقين، وثماني عشرة سورة من السور القصار، لكنا نتعرض لكليات أوصافها على حسب المقدور.

فاعلم ان المستفاد من كلامه سبحانه ان هناك ارتباطاً مخصوصاً بين الأرض وبين الجنة، قال سبحانه:

﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾[1].

ولعل قولهم:

﴿صدقنا وعده﴾ (الآية).

إشارة إلى قوله سبحانه:

﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[2].

والوراثة هي ان تملك شيئاً بعد ما ملكه آخر قبلك، وتخول منه ما خوله سلفك، فالميراث يحتاج إلى شيء ثابت اعتورته يد بعْدَ يد وقام به خلف بعد

---

(١) سورة الزمر الآية: ٧٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ١٠٥.

سلف، وكان مقتضى ظاهر السياق في بيان صدق الموعد أن يقال (واورثنا الأرض نتبوأ منها) أو يقال ﴿واورثنا الجنة نتبوأ منها) فالعدول عن ذلك إلى ما ترى يعطي ارتباطاً ما، واتحاداً مخصوصاً بين الأرض والجنة كما ترى.

وقد اخبر سبحانه بتبديل الأرض يوم القيامة تارة، فقال:

﴿يوم تبديل الأرض غير الأرض﴾[1].

وبإشراقها بنور ربها تارة، فقال:

﴿واشرقت الأرض بنور بها﴾[2].

وبقبضها تارة، فقال:

﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾[3].

ويشير إلى ما مر بقوله:

﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾[4].

وأصرح منه قوله سبحانه:

﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من ابائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾[5].

فقد فُسر ووُصف، عقبى الدار، بجنات عدن يدخلونها. والدخول يستدعي خروجاً ما سابقاً، فمثلهم كمثل الذي يسكن أرضاً ثم يعمر فيها داراً يسكنها، ثم يزين قبة من قبابها فيدخلها، فانما هو أوج بعد حضيض أو ارتقاء بعد

(١) سورة إبراهيم الآية: ٤٨.
(٢) سورة الزمر الآية: ٦٩.
(٣) سورة الرعد الآية: ٤٢.
(٤)
(٥) سورة الرعد الآية: ٢٤.

ارتقاء، قال سبحانه:

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً﴾[1].

وهناك آيات أخر تشعر بذلك، كقوله سبحانه:

﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾[2].

وقوله:

﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾[3].

وقوله:

﴿وتلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[4].

وفي المجمع عن النبي ﷺ: ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما الكافر فيرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة، فذلك قوله:

﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾.

أقول، والرواية، لو صحت، لم تناف ما ذكرناه من وراثة الأرض وكذلك سياق قوله سبحانه:

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾.

وهو ظاهر هذا، والبرهان السابق تستفاد منه هذه الوراثة.

ثم اعلم انه سبحانه كرر الوعد بتطهير الجنة وأهلها، وتطييبها من الكدورات والظلمات، قال تعالى:

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥.
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٢٨.
(٣) سورة مريم الآية: ٦٣.
(٤) سورة الأعراف الآية: ٤٣.

﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾[1].

فالتفريع بالفاء: يعطى طيب المنزل كطيب النازل، وقال سبحانه:

﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾[2].

والتفريع فيها يعطى طيب المنزل، وهو الأرض، بطيب النازل بالصبر، والفرق من جهة أن السلام الأول شكر، والثاني في مقام البشرى.

وقال سبحانه:

﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾[3].

وقال:

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾[4].

وقال:

﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾[5].

إلى غير ذلك من الآيات، وأجمعها معنى قوله سبحانه:

﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾[6].

فالخوف انما يكون من المكروه المحتمل، والحزن على مكروه واقع، فقد نفى سبحانه كل نقيصة، وعدم واقع في الموجود، ومحتمل؛ فأصحاب الجنة مبرؤون عن النواقص والاعدام، وكاملون في وجوداتهم فلا مزاحمة من مزاحمات الدنيا هناك أصلاً، فهي المرفوعة عنهم فهم المفلحون المغشيون بالأمن والسلام، قال سبحانه:

---

(١) سورة الزمر الآية: ٧٢.

(٢) سورة الرعد الآية: ٢٤.

(٣) سورة التوبة الآية: ٧٢.

(٤) سورة الحجر الآية: ٤٨.

(٥) سورة فاطر الآية: ٣٥.

(٦) سورة الأعراف الآية: ٤٩.

﴿ادخلوها بسلام آمنين وقال لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً﴾[1].

ثم آعلم أنه سبحانه وعدهم فيها كل لذة وبهجة وجمال وكمال، قال سبحانه:

﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم وقال نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم﴾[2].

وأكثر الآيات واردة في وصف خصوصيات من قصورها، وحورها، وطيورها، وأشجارها، وأثمارها، وأنهارها، وفواكهها، وظلها، وشرابها، وغلمانها، وخلودها، وينبغي لك ان تفهم منها معانيها مطلقة غير مشوبة بالنواقص والاعدام.

ثم آعلم أنه سبحانه وَعَدهم أمراً وراء ذلك، فقال:

﴿فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾[3].

وهذا الوعد بعد ما وصف سبحانه عطاءه بكل صفة جميلة بليغة، يعطى أنه أمر وراء ما يسعه افهام النفوس.

وقد روى القمي في تفسيره عن عاصم بن صمد عن الصادق (ع) في حديث يصف فيه الجنة، قال: قلت جعلت فداك زدني. فقال: ان الله خلق جنة بيده، ولم ترها عين، ولم يطلع عليها مخلوق، يفتحها الرب كل صباح فيقول ازدادي ريحاً ازدادي طيباً، وهو قول الله:

﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

---

(١) سورة الواقعة الآية: ٢٦.
(٢) سورة فصلت الآية: ٣٢.
(٣) سورة السجدة الآية: ١٧.

أقول، وقوله:

﴿**جزاء بما**﴾ (الآية).

يعطي ان هذا الذي فوق فهم الافهام اخفيت للإنسان بازاء العمل جزاء له، وقد قال سبحانه:

﴿**لهم ما يشاؤون فيها**﴾[1].

فكل ما تتعلق به المشيئة مملوك للانسان هناك، وقال أيضاً:

﴿**وان ليس للانسان إلا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى**﴾[2].

فكل ما يحباه الإنسان هناك أعم مما يسعه الفهم، وما لا يسعه مملوك له لمكان قوله:

﴿**لهم**﴾ (الآية).

وواقع تحت المشيئة المطلقة لقوله:

﴿**ما يشاؤون**﴾ (الآية).

لكن الآية تفيد أنَّ للانسان كمالاً فوق مرتبة الفهم، يمكن ان يملكه بالعمل وهو ظاهر، ولعل ذلك ما يفيده قوله سبحانه:

﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[3].

وهو المشاهدة بالقلوب في غير جهة ولا جسم ولا تشبيه، لقوله تعالى:

﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾[4].

---

(١) سورة ق الآية: ٣٥.
(٢) سورة النجم الآية: ٣٩.
(٣) سورة القيامة الآية: ٢٢.
(٤) سورة الكهف الآية: ١١٠.

حيث رتب اللقاء على العلم النافع والعمل الصالح، ثم انه سبحانه قال:

﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾[1].

فإثباته المزيد لديه بعد ما أخبر أن لهم كل ما يتعلق به مشيئتهم يعطي أنه أمر لا يقع تحت مطلق المشيئة، ولا شك انه كمال، وإن كل كمال يقع تحت المشيئة فليس إلا انه كمال غير محدود، فلا يقع تحت المشيئة، إذ كل ما يقع تحتها يصير محدوداً.

وفي تفسير القمي في قوله: «ولدينا مزيد». قال (ع): ينظرون إلى رحمة الله.

أقول ولعل الرواية مستفادة من قوله تعالى:

﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[2].

فبيّن أن المزيد الذي هو رزق بغير حساب من الفضل، وقد قال:

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾[3].

فالفضل من الرحمة، وهي الرحمة من غير استحقاق، وقال سبحانه:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾[4].

فهذا المكتوب لهم الذي لا يسعه شيء هو المزيد، ولئن تدبرت في قوله سبحانه:

﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة﴾[5].

وقوله:

﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم برحمة ادخلوا الجنة﴾[6] (الآية).

(١) سورة ق الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور الآية: ٣٨.
(٣) سورة النور الآية: ٢١.
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٥٦.
(٥) سورة الحديد الآية: ١٣.
(٦) سورة الأعراف الآية: ٤٩.

وقوله :

﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[1].

وقوله :

﴿وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾.

قضيت ان الرحمة هي الجنة بوجه بل ان الجنة من مراتبها.

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٦.

الفصل السادس عشر
في النار

أعاذنا الله سبحانه منها، والآيات الواردة في تفاصيل العذاب والاخبار بها أكثر عدداً من آيات الجنة، فهي تقرب من أربعمائة آية، وما خلت عن ذكرها تصريحاً أو تلويحاً إلا اثنتا عشرة سورة من السور القصار، وكيف كان فجملة حالهم انهم محرومون من الحياة الحقيقية الأخروية، قال سبحانه:

﴿قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾[1].

وقال:

﴿انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[2].

وقال:

﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[3].

وقد قال سبحانه في وصف الآخرة:

﴿وان الدار الآخرة لهي الحيوان﴾[4].

وهي الرحمة الالهية التي هي منبع كل كمال وجمال، كما قال:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾[5].

---

(١) سورة ق الآية: ٣١.
(٢) سورة الممتحنة الآية: ١٣.
(٣) سورة يوسف الآية: ٨٧.
(٤) سورة الحجر الآية: ٥٦.
(٥) سورة العنكبوت الآية: ٦٤.
(٦) سورة الأعراف الآية: ١٥٦.

وهي تفيد انهم في عين حرمانهم منها مشمولون لها، وقد قال:

﴿وبينهما حجاب وقال فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾[1].

ويتحصل منه أنهم في عين مشموليتهم للرحمة محرومون عنها لكونها في باطن حجاب هم لا يجاوزون ظاهرة، وقد مر بيانه في فصل الاعراف، فالحجاب هو الذي يمنعهم من النعيم، وظاهره هو الذي يعذبون به، وقد بين سبحانه انهم انما يعذون بأعمالهم السيئة بأقسامها، فاعمالهم هي أنواع عذابهم، والأصل الذي تنشعب منه هذه الأنواع هو أصل الحجاب لهم، وهو الغفلة، قال تعالى:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾[3].

فهم متوقفون في حجاب أعمالهم، وقد قال سبحانه:

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾[4].

وقال:

﴿اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾[5].

---

(١) سورة الحديد الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٩.
(٣) سورة المطففين الآية: ١٤.
(٤) سورة الفرقان الآية: ٢٣.
(٥) سورة النور الآية: ٣٩.

وقال:

﴿ألم تـر إلى الذين بـدلـوا نعمـة الله كفـراً وأحلوا قـومهـم دار البـوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾[1].

وقال:

﴿ومكر أولئك هو يبور﴾[2].

فمقامهم سراب الأوهام دون الحقيقة، والظاهر دون الباطن، والبوار والهلاك دون الحياة، ومواطنهـا كلها هـو الدنيـا التي حياتهـا متاع الغـرور، ولذلـك فلها ارتباط خاص بجهنم، قال سبحانه:

﴿وان منكم إلا واردها كان عـلى ربـك حتمـا مقضياً ثم ننجي الـذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾[3].

وقال سبحانه، في سورة السجدة:

﴿ولـو شئنا لأتينـا كل نفس هـديها ولكن حق القـول مني لامـلان جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[4].

وهذه أبلغ الآيات في الكشف عن شـأن جهنم، ولذلـك ورد عنهم (ع)، كما في ثـواب الأعمال عن الصـادق (ع)، من اشتاق إلى الجنـة وإلى صفتهـا فليقـرأ الواقعة، ومن أحب ان ينظر إلى صفة النار فليقرأ سجدة لقمان، وفي معنى الآية السابقة قوله:

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه إلى أسفل سـافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾[5].

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٢٨.
(٢) سورة فاطر الآية: ١٠.
(٣) سورة مريم الآية: ٧٢.
(٤) سورة السجدة الآية: ١٣.
(٥) سورة التين الآية: ٦.

ومّا مر يظهر معنى صنف آخر من الآيات كقوله سبحانه:

﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾[1].

وقوله:

﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾[2].

والمراد بالحجارة بقرينة المورود، وهي الأصنام المتخذة من الحجارة المعبودة من دون الله.

وقوله سبحانه:

﴿أولئك هم وقود النار﴾[3].

وقوله سبحانه:

﴿انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾[4].

وقد استدرك سبحانه المعبودين من دون الله من عباده الصالحين بقوله، بعد الآية.

﴿ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون﴾[5].

وقوله سبحانه:

﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾[6] (الآيات).

واعلم أن ما مر أصول صفة النار، وهي المستفادة من البرهان السابق.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٤.

(٢) سورة التحريم الآية: ٦.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٠.

(٤) سورة الأنبياء الآية: ٩٨.

(٥) سورة الأنبياء الآية: ١٠١.

(٦) سورة الهمزة الآية: ٦.

الفصل السابع عشر
في عموم المعاد

قال سبحانه:

﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق. وأجل مسمى﴾[1].

أفاد أن خلقة ما في السموات والأرض وما بينهما مقرون بالحق وأجل مسمى، (والباء للسببية أو للمصاحبة) وقد عرفت في الفصل الأول أنَّ الأجل المسمى هو الحياة عند الله حياة تامة سعيدة من غير فناء وزوال ولا شوب بمزاحمات الحياة الدنيا وآلامها وأعراضها وأغراضها، وهي حياة الدار التي نزلت منها كما قال سبحانه:

﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾[2].

فمنبع حياة جميع هذه الموجودات على كثرتها وتفصيلها حياة تامة غير محدودة ومعادها إلى ما بدئت منه.

وهذا هو الذي يعطيه كون الخلقة بالحق، فان الباطل هو الفعل الذي لا ينتهي إلى غاية تكون هي المنتهى إليها، والمراد بالفعل ومن المحال ان يكون المراد والغاية بالفعل نفس الفعل، وبالخلق نفس الخلق، إلَّا ان يكون كاملاً في أصل وجوده غير متدرج من النقص إلى الكمال، ثابتاً غير متغير، فالبراهين مطبقة على ذلك على انه من القضايا التي قياساتها معها.

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٣.

(٢) سورة الحجر الآية: ٢١.

ومثل الآية السابقة قوله سبحانه:

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾[1].

وحيث لم يفرق سبحانه في السياقين بين الموجودات الحية باعتقادنا وغيرها والعاقلة وغيرها علمنا بذلك ان حكم المعاد والحشر يعم الجميع.

ثم انه سبحانه قال في خصوص الأحياء من خليقة الأرض:

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾[2].

وظاهرُ آخرِ الآية أنَّ حشرهم انما هو لكونهم أمماً أمثال الناس غير باطل الخلق، ففيهم غاية مقصودة من الخلقة وهي العود، فالفرق والنشر مقصود للجمع والحشر، كما ان الجمع والحشر مقصود للفرق والنشر، يعطي ذلك قوله سبحانه:

﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه﴾.

وكذلك صفاته واسماؤه تعالى. فاعتبر إنْ كنت من أهله إن شاء الله.

فحشرهم إلى ربهم نتيجة كونهم أمماً أمثال الناس أو كالنتيجة له، ويبين السبب في ذلك قوله تعالى:

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ (الآية).

فإنه الكتاب الحق الذي يقول فيه هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، وحقية الكتاب تعطي ان لا تكون الاختلافات التي تجعل الدواب والطير أمة أمة، تفترق كل أمة عن غيرها بأشكال وصور وأفعال وخواص فيها لغواً باطلاً بل مؤثراً في الغاية والمنتهى من دون استهلاك لها وزوال في الوسط قبل البلوغ إلى

---

(١) سورة ص الآية: ٤٧.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٣٨.

الغاية، وإلاّ كان الاختلاف باطلاً وتفريطاً في الكتاب، محلاً لاتقانه فقد تحصل ان الحيوانات الأرضية أمم أمثال الناس بينهم ولهم ما للناس من العود إلى ربهم والاجتماع عنده سبحانه وقال سبحانه أيضاً:

﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾[1].

فعمم الحكم إلى كل ذي روح في السموات والأرض، ومثله قوله سبحانه:

﴿ان كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً كلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[2].

وقوله:

﴿عبداً﴾ (الآية).

يعطى ان لكل منها عبودية بحسب نفسه، ونسكاً إليها يتقرب به إلى ربه وقد مر تفسير الفرد.

واعلم أن قوله:

﴿وكلهم أتيه يوم القيامة فرداً﴾.

على ما تفسره الآيات من معنى الفرد يعطي لقوله:

﴿وهو على جمعهم﴾ (الآية).

معنى آخر غير ما يتسابق إلى الفهم من معنى الجمع، وقد تكرر اطلاق الجمع والحشر على البعث في الآيات، كقوله:

﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾[3].

---

(١) سورة الشورى الآية: ٢٩.

(٢) سورة مريم الآية: ٩٤.

(٣) سورة النساء الآية: ٨٧ وسورة الأنعام الآية: ١٢.

وقوله :

﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾[1].

وبذلك يتضح معنى قوله سبحانه :

﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾[2].

وقوله :

﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾[3].

وقوله :

﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً في جهنم﴾[4].

ولنرجع إلى ما كنا فيه ويشير إلى بعث غير ذوي الروح والشعور قوله سبحانه :

﴿ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[5].

وضمير «كانوا» في الموضعين راجع إلى المعبودات من غير الله، كما يدل عليه قوله سبحانه :

﴿ذلكم الله ربكم له الملك، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾[6].

---

(١) سورة التغابن الآية : ٩.
(٢) سورة الزمر الآية : ٧٣.
(٣) سورة الزمر الآية : ٧١.
(٤) سورة الأنفال الآية : ٣٧.
(٥) سورة الأحقاف الآية : ٦.
(٦) سورة فاطر الآية : ١٤.

وكفرهم قولهم على ما حكاه سبحانه:

﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾[1].

وبالجملة فقوله له:

﴿من لا يستجيب له﴾ الخ.

ظاهر الدلالة على انه المعبودات من غير الله من النبات والجماد غير البشر والملائكة فهم مبعوثون ليوم القيامة بدلالة قوله:

﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم اعداء﴾ الخ.

ويدل عليه بعينه قوله سبحانه:

﴿أموات غير أحياء وما يشعرون ايان يبعثون﴾[2].

واعلم ان ظاهر هذه الآيات ملازمة البعث مع الحياة والعلم كما يفيده حال الضماير في الآيات فما ألطف اشارة قوله:

﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾[3].

وقد مر في فصل الشهود ان ظواهر الآيات تعطي سراية الحياة والعلم إلى جميع الموجودات.

واعلم ان ما ذكرناه من شمول البعث لغير البشر والملك من سائر ما خلق الله تعالى في السموات والأرض وما بينهما هو الذي يدل عليه الاخبار إلا انها متفرقة مثل ما يدل على ان كلب أصحاب الكهف وناقة صالح والنعم التي حج عليها ثلاث سنين أو سبعاً تدخل الجنة، وان الوحوش والكلاب تدخل النار تنهش

---

(١) سورة القصص الآية: ٦٣.

(٢) سورة النحل الآية: ٢١.

(٣) سورة الشورى الآية: ٢٩.

المجرمين قال تعالى:

﴿وإذا الوحوش حشرت﴾[1].

وما ورد ان الله تعالى يأخذ يوم القيامة للجمّاء من القرناء رواه في المحاسن عن أمير المؤمنين (ع) وفي المجمع عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وما ورد من قوله ﷺ حين رأى ناقة معقولة عليها جهازها أين صاحبها مروه فليستعد غداً للخصومة، رواه في الفقيه عن النبي ﷺ وما ورد عنهم (ع) في مانع الزكاة انه تنهشه كل ذات ناب بنابها وتطأهُ كل ذات ظلف بظلفها وما ورد في الضحايا إلى غير ذلك.

واعلم ان الآيات غير متعرضة لحال بعث من خلقه الله تعالى فيما وراء السموات والأرض، وهم جماعة من خلق الله تعالى لا يحد وجودهم حد ولا يقدر ذواتهم قدر، فهم أرفع من الحد والقدر فلا يتصور في حقهم بعث وإعادة غير أصل خلقهم والصفات التي تبرز يوم القيامة حاصلة عندهم دائماً وقد ذكرناها في الفصل الرابع، فالبدء والعود في حقهم واحد ولذلك لم يرد في كلامه سبحانه ما يشعر بالبعث في حقهم هذا.

ويلحق بهم في ذلك المخلصون، فقد مرت نبذة من حالهم في تضاعيف الفصول الماضية فهم عند الله لا يحجبهم عنه حجاب مستور، ليسوا في سماء ولا أرض، وهم المهيمنون على الجميع المتوسطون بينه وبين خلقه في المبدأ والمعاد، وهم المستثنون من حكم قبض ملك الموت وأعوانه والآمنون من فزع النفخة وصعقتها وهم غير محضرين لعرصة المحشر وهم الساكنون في الحجاب الحاكمون بين الناس ولبيان أزيد من هذا من صفاتهم مقام آخر.

واعلم ان ما مر هو المستفاد من البرهان على ما تعطيه الأصول السابقة فان الغاية عين الفاعل بالضرورة، فما بدأ منه شيء في وجوده وتعين من لدنه في ذاته

---

(١) سورة التكوير الآية: ٥.

لا بُدَّ أنْ يكون هو المنتهي إليه وجوده.

ومن هنا يظهر أنَّ كلا من الجنة والنار ذات مراتب ودرجات، فمراتب الجنة آخذة من تحت إلى فوق ومراتب النار بالعكس من ذلك.

ومن هنا يظهر ان كل درجة عالية في الجنة مرتبة لفاعل ذي الدرجة الدانية ولو تصور في النار مثل ذلك لكان الأمر بعكسه.

ومن هنا يظهر معنى اللحوق والشفاعة وقد مر مراراً ويظهر معنى جم غفير من الآيات والروايات والله الهادي وهو المعين.

خاتمة

وقد عزمنا فيما مر على تخصيص فصل مستقل في آخر الرسالة بالكلام في معنى المغفرة، لكن ضيق المجال وتراكم الأشغال منعنا عن الكلام وحجب دون المرام والله سبحانه أسأل ان يوفقني ان ألحق فصلاً بهذه الرسالة يتبين به ما كنا نريده من وضع الكلام في ذلك وأرجوه ان يشاء ذلك فانه على كل شيء قدير.

واعلم ان نوع الكلام في مباحث المعاد طويل الذيل، مبسوط الأطراف ويهديك إلى ذلك ان تتدبر في ما ورد في كل من المبدأ والمعاد من الآيات القرآنية والبيانات الإلهية.

والذي صدنا عن الغور في أكثر مما تشاهده في تضاعيف الفصول السابقة، هو إيثار الاختصار، على أن بسط المقال بأزيد مما رأيت غير ميسر ولا ميسور عند الباحثين عن الحقائق، ولذلك فالإشارة في هذه المطالب تغلب العبارات.

المصادر

القرآن الكريم
تفسير العياشي
تفسير القمي
الكافي للكليني
الأمالي للمفيد
نهج البلاغة
العلل للصدوق
التوحيد للصدوق
محاسبة النفس لابن طاووس
نوادر الراوندي
فردوس الديلمي
رسائل التوحيدية للطباطبائي

محتويات الكتاب

